

الكتاب: روائع نهج البلاغة
المؤلف: جورج جرداق
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق: إعداد وترتيب : جورج جرداق
الطبعة: الثانية
سنة الطبع: ١٤١٧ - ١٩٩٧ م
المطبعة: باقري
الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية
ردمك:
ملاحظات:

روائع
نهج البلاغة

(١)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(۲)

الإمام علي
روائع
نهج البلاغة
اختارها ورتبها وقدم لها بدراسة واسعة
جورج جرداق
مركز الغدير للدراسات الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الكتاب: روائع نهج البلاغة
إعداد وترتيب: جورج جرداق
الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية
الطبعة: الثانية
ذو القعدة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م
المطبعة: باقري
عدد النسخ: ٢٠٠٠

تقديم الإمام علي بن أبي طالب (ع) هو إمام البلغاء والمتكلمين، كما هو إمام المتقين.. وآيته في ذلك نهج البلاغة الذي يمثل، في أسس البيان العربي، مكانة تلي مكانة القرآن الكريم.. وتتصل به أساليب العرب، في نحو ثلاثة عشر قرناً، فتبني على بنائه، وتقبس منه جذوتها، ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر.

كان الإمام علي (ع) يرتجل كلماته، يلقيها، في مجالس القوم، خلاصات تأمل، وفي محافلهم، خطبا تجيش في داخل الذات فينطق بها اللسان عفواً، فتأتي محكمة (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق). اختار الشريف الرضي أواخر القرن الرابع الهجري نماذج من خطبه ورسائله وكلماته القصار، وجمعها في كتاب سماه (نهج البلاغة). والاسم يدل على أن هذه النماذج المختارة تمثل نهجا في البيان والأداء، يوصل، إن اتخذ مثالا، إلى البلاغة، بوصفها كشفا عما في الذات والواقع وإيصالا إلى المتلقي. وهذه هي غاية الأدب الخلاق العظيم.

ومنذ ذلك اليوم الذي جمع فيه الكتاب عكف العلماء والأدباء على قراءته وشرحه، فتعددت الشروح وتنوعت، وبلغ بعضها مجلدات عديدة، يقتضي الاطلاع عليها وقتا وجهدا قد لا يملكهما المرء في هذا العصر. ومن هنا جاءت الحاجة إلى كتاب يبسر للإنسان العادي معرفة (النهج) من طريق اختيار نماذج منه وشرحها.

وقد سعى الأديب المعروف جورج جرداق إلى أداء هذه المهمة، فاشتغل سنوات طويلا، ليسهل الصعوبات أمام القارئ، فيجمع بين دفتي كتاب روائع (نهج البلاغة) ويوبها وفق موضوعاتها من جهة، ووفق زمن صدورها من جهة ثانية، ويشرح الغريب والصعب من مفرداتها.

ثم زاد على ذلك، فقدم بين يدي الروائع التي اختارها ورتبها وشرحها دراسة جديدة في نوعها عن الشخصية العلوية من خلال نهج البلاغة، أضافها إلى سلسلة دراسته الخمس الشهيرة (الإمام علي صوت العدالة والإنسانية). يلبي هذا الكتاب حاجة للقارئ العادي ولطلاب المدارس والجامعات، وللقارئ المختص، أيضا، في هذا الزمن الذي لا يجد فيه المرء فرصة للقراءة وسط المشاغل العديدة، وطغيان وسائل الإعلام المسموعة والمرئية. ويسر مركز الغدير للدراسات أن يقدم هذا الكتاب في حلته الجديدة هذه بعد نفاذ طبعته، راجيا أن تتحقق به الفائدة التي توخاها. مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

في أدب الإمام.

(Y)

حدود العقل والقلب
وكان شديدا قاصفا، مزمجرا، كالرعد
في ليالي الويل!
والينبوع هو الينبوع لا حساب في جريه
ليل أو نهار.

من تتبع سير العظماء الحقيقيين في التاريخ لا فرق بين شرقي منهم أو غربي ولا قديم
ومحدث، أدرك ظاهرة لا تخفى وهي أنهم، على اختلاف ميادينهم الفكرية وعلى تباين
مذاهبهم في موضوعات النشاط الذهني، أدباء موهوبون على تفاوت في القوة والضعف.
فهم بين منتج خلاق، ومتذوق قريب التذوق من الإنتاج والخلق. حتى لكأن الحس
الأدبي، بوسع دنيواته ومعانيه وأشكاله، يلزم كل موهبة خارقة في كل لون من ألوان
النشاط العظيم.

فنظرة واحدة إلى الأنبياء، مثلا، تكفي لتقرير هذه الظاهرة في الأذهان. فما
داود وسليمان وأشعيا وأرميا وأيوب والمسيح ومحمد إلا أدباء أوتوا من الموهبة الأدبية
ما أوتوا من سائر المواهب الخاصة بهم. وهذا نابليون القائد، وأفلاطون الفيلسوف،
وباسكال الرياضي، وباستور العالم الطبيعي، والخيام الحسابي، ونهرو رجل الدولة
وذيغول السياسي، وابن خلدون المؤرخ، إنهم جميعهم أدباء لهم في الأدب ما يجعلهم
في مصاف ذوي الشأن من أهله. فلكل منهم لون من ألوان النشاط الفكري حدده الطبع
والموهبة، ثم رعت النزعة الجمالية ما دخل منه في نطاق التعبير، فإذا هو من الأدب
الخالص.

هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب فإذا هو الإمام في
الأدب،
كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علم وهدى، وآيته في ذلك (نهج البلاغة)
الذي

يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسس، وتتصل به أساليب العرب في نحو

ثلاثة عشر قرنا فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر. أما البيان فقد وصل علي سابقه بلا حقه، فضم روائع البيان الجاهلي الصافي المتحد بالفطرة السليمة اتحادا مباشرا، إلى البيان الإسلامي الصافي المهذب المتحد بالفطرة السليمة

والمنطق القوي اتحادا لا يجوز فيه فصل العناصر بعضها عن بعض. فكان له من بلاغة الجاهلية ومن سحر البيان النبوي، ما حدا بعضهم إلى أن يقول في كلامه إنه (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق).

ولا عجب في ذلك، فقد تهيأت لعلي جميع الوسائل التي تعده لهذا المكان بين أهل البلاغة. فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو، ثم إنه عايش أحكم الناس محمد بن عبد الله، وتلقى من النبي رسالته بكل ما فيها من حرارة وقوة. أضف إلى ذلك

استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة، فإذا بأسباب التفوق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة جميعا.

أما الذكاء، الذكاء المفرط، فتلقى له في كل عبارة من (نهج البلاغة) عملا عظيما. وهو ذكاء حي، قادر، واسع، عميق، لا تفوته أغوار. إذا هو عمل في موضوع أحاط به بعدا فما يفلت منه جانب ولا يظلم منه كثير أو قليل، وغاص عليه عمقا، وقلبه تقليبا وعركه عركا، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعنها في الاختفاء كما أدرك أصدق النتائج المترتبة على تلك الأسباب: ما قرب منها أشد القرب، وما بعد أقصى البعد. ومن شروط الذكاء العلوي النادر هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أنى اتجهت.

وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة حتى تكون كل منها نتيجة طبيعية لما قبلها وعللة لما بعدها. ثم إن هذه الأفكار لا تجد فيها ما يستغنى عنه في الموضوع الذي يبحث فيه. بل

إنك لا تجد فيها ما يستقيم البحث بدونه. وهو لاتساع مداه، لا يستخدم لفظا إلا وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتمعن في التأمل، ولا عبارة إلا وتفتح أمام النظر آفاقا وراءها آفاق.

فعن أي رحب وسيع من مسالك التأمل والنظر يكشف لك قوله: (الناس أعداء ما جهلوا) أو قوله: (قيمة كل امرئ ما يحسنه). أو الفجور دار حصن ذليل).

(۱۰)

وأي إيجاز معجز هو هذا الإيجاز: من تخفف لحق) وأي جليل من المعنى في العبارات الأربع وما تحويه من ألفاظ قلائل فصلت تفصيلاً، بل قل أنزلت تنزيلاً. ثم عن أي حدة في الذكاء واستيعاب للموضوع وعمق في الإدراك، يشف هذا الكشف العجيب عن طبع الحاسد وصفة نفسه وحقيقة حاله: (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم وقلب هائم وحزن لازم. مغتاز على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملك!).

ويستمر تولد الأفكار في (نهج البلاغة) من الأفكار فإذا أنت منها أمام حشد لا ينتهي. وهي مع ذلك لا تتراكم، بل تتساقق ويترتب بعضها على بعض. ولا فرق في ذلك بين ما

يكتبه علي وما يلقيه ارتجالاً. فالينبوع هو الينبوع ولا حساب في جريه لليل أو نهار. ففي خطبه المرتجلة معجزات من الأفكار المضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم

وإنك لتدهش، أمام هذا المقدار من الإحكام والضبط العظيمين، حين تعلم أن علياً لم يكن

ليعد خطبة ولو قبيل إلقائها بدقائق أو لحظات.

فهي جائشة في ذهنه منطلقة على لسانه عفو الخاطر لا عنت ولا إجهاد، كالبرق إذ يلمع

ولا خبر يأخذه أو يعطيه قبل وميضه. وكالصاعقة إذ ترمجز ولا تهى نفسها لصعق أو زمجرة.

وكالريح إذ تهب فتلوي وتميل وتكسح وتنصب على غاية ثم إلى مداورها تعود ولا يدفعها

إلى أن تروح وتجئ إلا قانون الحادثة ومنطق المناسبة في حدودها القائمة، لا قبل ولا بعد!

ومن مظاهر الذكاء الضابط القوي في نهج البلاغة تلك الحدود التي كان علي يضبط بها

بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه وتعصف. فإن عاطفته الشديدة ما تكاد تغرقه في

محيط من الأحزان والكآبات البعيدة، حتى يبرز سلطان العقل في جلاء ومضاء، فإذا هو أمر مطاع.

ومن ذكاء علي المفرط الشامل في نهجه كذلك أنه نوع البحث والوصف فأحكم في كل

موضوع ولم يقصر جهده الفكري على واحد من الموضوعات أو سبل البحث. فهو يتحدث

بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس، وطبائع الأفراد والجماعات. وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء. ويسهب في القول في مظاهر الطبيعة الحية فيصف.

خفايا الخلق في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها. ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين. ويبدع في التحدث عن خلق الكون وروائع الوجود. وإنك لا تجد في الأدب العربي كله هذا المقدار الذي تجده في نهج البلاغة من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم في مثل هذا الأسلوب النادر.

أما الخيال في نهج البلاغة فمديد وسيع، خفاق الجوانح في كل أفق. وبفضل هذا الخيال القوي الذي حرم منه كثير من حكماء العصور ومفكري الأمم، كان علي يأخذ من ذكائه وتجاربه المعاني الموضوعية الخالصة، ثم يطلقها زاهية متحركة في إطار تثبت

على جنباته ألوان الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقليا جافا، لا يمر

في مخيلة علي إلا وتثبت له أجنحة تقضي فيه على صفة الجمود وتمده بالحركة والحياة

فخيال علي نموذج للخيال العبقري الذي يقوم على أساس من الواقع، فيحيط بهذا الواقع

ويرزه ويجليه، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته، ويصبغه بألوان كثيرة من مادته ولونه، فإذا الحقيقة تزداد وضوحا، وإذا بطلها يقع عليها أو تقع عليه! وقد تميز علي بقوة ملاحظة نادرة، ثم بذاكرة واعية تخزن وتتسع. وقد مر من أطوار حياته بعواطف جرها عليه حقد الحاقدين ومكر الماكرين، ومر منها كذلك بعواطف كريمة

أحاطه بها وفاء الطيبين وإخلاص المخلصين. فتيسرت له من ذلك جميعا عناصر قوية تغذي

خياله المبدع. فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساقق في لوحات رائعة حية، شديدة

الروعة والحيوية، تتركز على واقعية صافية تمتد لها فروع وأغصان، ذات أوراق وأثمار! ومن ثم يمكنك، إذا أنت شئت أن تحول عناصر الخيال القوي في نهج البلاغة إلى رسوم مخطوطة باللون، لشدة واقعيته واتساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها. ألا

ما أروع خيال الإمام إذ يخاطب أهل البصرة وكان بنفسه ألم منهم بعد موقعة الجمل، قائلا:

(لتغرقت بلدتكم حتى كأنني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ طير في لجة بحر (١)!

١ - الجؤجؤ: الصدر.

(١٢)

أو في مثل هذا التشبيه الساحر: (فتن كقطع الليل المظلم).
أو هذه الصورة المتحركة: (وأنما أنا كقطب الرحي: تدور علي وأنا بمكاني!)
أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيلة
وتبدو له شرفاتهم كأنها أجنحة النسور: (ويل لسكككم العامرة، والدور المزخرفة التي
لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة!)
ومن مزايا الخيال الرحب قوة التمثيل. والتمثيل في أدب الإمام وجه ساطع بالحياة. وإن
شئت مثلا على ذلك فانظر في حال صاحب السلطان الذي يغبطه الناس ويتمنون ما هو

فيه من

حال، ولكنه أعلم بموضعه من الخوف والحذر، فهو وإن أخاف بمركوبه إلا أنه يخشى
أن يغتاله. ثم انظر بعد ذلك إلى علي كيف يمثل هذا المعنى يقول، (صاحب السلطان
كراكب الأسد: يغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه)

وإن شئت مثلا آخر فاستمع إليه يمثل حالة رجل رآه يسعى على عدو له بما فيه إضرار
بنفسه، فيقول، (إنما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفه!) والردف هو الراكب خلف
الراكب. ثم إليك هذا النهج الرائع في تمثيل صاحب الكذب: (إياك ومصادقة الكذاب.
فإنه كالسراب: يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب!)

أما النظرية الفنية القائلة بأن كل قبيح في الطبيعة يصبح جميلا في الفن، فهي إن صحت
فإنما الدليل عليها قائم في كلام ابن أبي طالب في وصف من فارقوا الدنيا. فما أهول
الموت

وما أبشع وجهه. وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقعه. فهو قول آخذ
من العاطفة العميقة نصيبا كثيرا، ومن الخيال الخصب نصيبا أوفر. فإذا هو لوحة من
لوحات

الفن العظيم لا تدانيها إلا لوحات عباقرة الفنون في أوربا ساعة صوروا الموت وهوله
لونا ونغما وشعرا.

فبعد أن يذكر علي الأحياء بالموت وقيم العلاقة بينهم وبينه، يوقظهم على أنهم دانون
من منزل الوحشة بقول فيه من الغربة القاسية لون قاتم ونغم حزين: (فكأن كل امرئ
منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته، فيا له من بيت وحدة، ومنزل وحشة، ومفرد
غربة!) ثم يهزهم بما هم مسرعون إليه ولا يدرون، بعبارات متقطعة متلاحقة وكأن فيها
دوي طبول تنذر تقول (ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع

الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر!) بعد ذلك يطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها العقل، وتشعلها العاطفة، ويجسم الخيال الوثاب عناصرها ثم يعطيها

هذه الحركات المتتابعة وهي بين عيون تدمع وأصوات تنوح وجوارح تنن، قائلاً: (وإنما الأيام بينكم وبينهم بؤك ونوائح عليكم). ثم يعود فيطلق لعاطفته وخياله العنان فإذا بهما يبدعان هذه اللوحة الخالدة من لوحات الشعر الحي: (ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً، وبالسمع صمماً، وبالحرركات سكوناً. فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات (١)! جيران لا يتأنسون، وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء. فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاء، لا يتعارفون لليل صباحاً، ولا لنهار مساءً. أي الجديدين (٢) ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً (٣)) ثم يقول هذا القول الرهيب: (لا يعرفون من أتاهم، ولا يحفلون من بكاهم، ولا يجيبون من دعاهم!)

فهل رأيت إلى هذا الإبداع في تصوير هول الموت ووحشة القبر وصفة سكانه في قوله: (جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون!) ثم هل فطنت إلى هذه الصورة الرهيبة لأبدية الموت التي لا ترسمها إلا عبقرية علي: (أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً!)

ومثل هذه الروائع في (النهج) كثير.

هذا الذكاء الخارق وهذا الخيال الخصب في أدب الإمام يتحدان اتحاد الطبيعة بالطبيعة،

مع العاطفة الهادرة التي تمدهما بوهج الحياة. فإذا الفكرة تتحرك وتجري في عروقها الدماء

سخية حارة. وإذا بها تخاطب فيك الشعور بمقدار ما تخاطب العقل لانطلاقها من عقل تمده العاطفة بالدفء. وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثر من آثار الفكر أو الخيال في

١ - ارتجال الصفة: وصف الحال بلا تأمل، فالواصف لهم بأول النظر يظنهم صرعى

من السبات، أي النوم.

٢ - الجديدان: الليل والنهار.

٣ - سرمد: أبدي.

ميادين الأدب وسائر الفنون الرفيعة، إن لم تكن للعاطفة مشاركة فعالة في إنتاج هذا الأثر. ذلك إن المركب الإنساني لا يرضيه، طبيعياً، إلا ما كان نتاجاً لهذا المركب كله. وهذا الأثر الأدبي الكامل، هو ما نراه في نهج البلاغة. وإنك لتحس نفسك مندفعاً في تيار جارف من حرارة العاطفة وأنت تسير في نهج البلاغة من مكان إلى آخر. أفلا يشيع في قلبك الحنان والعطف شيوعاً وأنت تصغي إلى علي يقول، (لو أحنني جبل لتهافت) أو (فقد الأحبة غربة!) أو (اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي، وقالوا: (إلا أن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أم متأسفاً! فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي!). وإليك كلاماً له عند دفن السيدة فاطمة، يخاطب به ابن عمه الرسول: (السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك! قل، يا رسول الله، عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي إلا أن لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز!) ومنه (أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم!) ثم إليك هذا الخبر:

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام علي قال: خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مدرعة من صوف، وحمائل سيفه ليف، وفي

رجليه نعلان من ليف: فقال عليه السلام، في جملة ما قال: (إلا إنه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً، وأقبل منها ما كان مدبراً. وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى! ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص، ويشربون الرنق؟! قد، والله، لقوا الله فوفاهم أجورهم وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم! أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاهدوا على النية؟)

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء!
وأخبر ضرار بن حمزة الضائبى قال: فأشهد لقد رأيته - يقصد الإمام - في بعض
مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في ظلامه قابض على لحيته يتململ ويبكي
بكاء

الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا، إليك عني! أبي تعرضت؟ أم إلي تشوقت؟ لا حان
حينك، هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها!
فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير! آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد
السفر وعظيم المورد!

هذه العاطفة الحارة التي عرفها الإمام في حياته، تواكبه أنى اتجه في نهج البلاغة،
وحيث سار. تواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط، كما تواكبه في ما يثير
العطف والرضا.

حتى إذا رأى تخاذل أنصاره عن مساندة الحق فيما يناصر الآخرون الباطل ويحيطونه
بالسلاح وبالأرواح، تألم وشكاً، ووبخ وأنب، وكان شديداً قاصفاً، مزمجراً
كالرعد في ليالي الويل! ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله: (أيها الناس
المجتمعة

أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب الخ). لتدرك أية عاطفة
متوجعة نائرة هي تلك التي تمد هذه الخطبة بنبض الحياة وجيشانها!
وإنه لمن المعيب أن نسوق الأمثلة على تدفق العاطفة الحية التي تبث الدفء في مآثر
الإمام.

فهي في أعماله، وفي خطبه وأقواله، مقياس من المقاييس الأسس. وما عليك إلا
أن تفتح هذا الكتاب كي تقف على ألوان من عاطفة ابن أبي طالب، ذات القوة الدافقة
والعمق العميق!

الوحدة الوجودية
وكان ما تباعد منها مضموما في وحدة
طرفاها الأزل والأبد!
الأدب أصالة في الفكر والحس والخيال والذوق، تربط بين صاحبها وجملة الكائنات
في وحدة وجودية مطلقة. ثم تعبر عن نفسها بحياة تحيا على أصول من هذه الوحدة،
وبأسلوب جمالي هو تجسيم حي للتفاعل بين الأديب والكون.
ولما كان العلم تجزئة كان الفن توحيدا. ولما كان العلم ينظر إلى الأشياء من حيث هي
كائنات مجزأة في ظاهرها، موحدة في أصولها وحقيقتها، مما يؤول إلى فكرة الشمول
الكوني والارتباط
الكامل بين مختلف مظاهر الوجود!
وما كان الأدب إلا بهذا الشمول.
وإذا كان الفلاسفة قد فطنوا إلى وحدة الوجود في العصور المتأخرة، فإن الأديب قد
فطن لها منذ كان الإنسان وكانت في أعماقه بذور الفن وأحاسيس الأدب. ذلك لأن
دليل
الفيلسوف عقله وقياسه، وكلاهما محدود بالنسبة للمركب الإنساني الحي. ودليل
الأديب
شعوره وإلهامه، وهما انبثاق عاجل وامض عن جملة كيانه.
ثم إن نظرة الفيلسوف إلى الكون كوحدة متفاعلة متكاملة، إن هي إلا نظرة تظل
سطحية إذا ما قيست بنظرة الأديب. فالفيلسوف يشاهد ويراقب ويقيس ثم يسجل.
وأداته في
ذلك العقل وحده، والعقل شيء من الإنسان الحي بل قل هو جانب منه. والأديب

يتفاعل مع الكون والحياة تفاعلا مباشرا مستمرا إذ يحس ويستلهم بعقله وشعوره
وخياله

ومزاجه وذوقه جميعا، أي بجملته كيانه. وهو، إلى ذلك، أسبق وأعمق. فالأديب أستاذ
الفيلسوف: أستاذه ودليله منذ كان، وأستاذه ودليله إلى الأبد!
وإذا كان هذا هو الأمر، وهو كذلك، فإن علي بن أبي طالب عظيم من عظماء هذه
الطائفة من حيث النظرة والأسلوب: طائفة الأدباء الخالدين الذين ينظرون إلى نجوم
السماء ورمال الصحراء ومياه البحار وكساء الطبيعة فإذا هي أشياء من نفوسهم، هذه
النفوس التي تستشعر في الكون قوة وجودية واحدة جامعة كانت منذ الأزل وتبقى إلى
الأبد.

يقول ميخائيل نعيمة الذي يمثل طاقة الفنان على الاحساس العميق بوحدة الوجود في
أدبنا

العربي المعاصر: (بل كيف يكون أديبا من لا يحس جذوره في الأزل والأبد، ولا يحس
ما مضى وما سيأتي!)

إن هذا الاحساس بالجمال الأسمى الذي يلف الكائنات جميعا. على تباين مظاهرها،
بوشاح واحد، هو ما تراه في آثار عباقرة الأدب مهما تنوعت موضوعات هذه الآثار،
ومهما اختلفت ظروفها. فإذا أنت سمعت صوت الشاعر العظيم ينطق بلسان المسيح
قائلا:

(تأملوا زنايق الحقل كيف تنمو، ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان
يلبس كواحدة منها!) سمعت صوتا من أعظم ما سمع الكون، وأدرت أمتع نظرة
تخترق

أعماق الجمال الكلي، وتساءلت: أنى للتراب والصخر وسحب السماء أن تأتي بمثل
هذه

الروعة وهذا الجمال، جمال زنايق الحقل وهي تنمو، لو لم تكن وحدة الوجود هذه
ولو لم يكن الجمال مدار الوجود الواحد، ورابطة أجزائه منذ البداية حتى النهاية؟ وهو،
في الوقت ذاته، مدار الفكرة والشعور لدى الفنان: الخالق الصغير!
ومن ذلك قول المسيح الرائع وقد جاؤوه بزانية جعلت على نفسها سبيلا بحكم
شرائعهم:

من كان منكم بلا خطيئة فليرحم هذه الزانية بحجر!

وإذا أنت سمعت قول الشاعر العظيم ينطق بلسان سليمان بن داود:

(جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر. والشمس تشرق والشمس تغرب

ثم تسرع إلى موضعها الذي طلعت منه. تذهب الريح إلى الجنوب وتدور إلى الشمال،
تدور
وتطوف في مسيرها ثم إلى مداورها تعود الريح! جميع الأنهار تجري إلى البحر والبحر
ليس
بملاّن ثم إلى الموضع الذي جرت منه الأنهار إلى هناك تعود لتجري أيضا!)
وإذا سمعته أيضا يقول:

أنا وردة الشارون وسوسنة الأودية، كالسوسنة بين الشوك كذلك خليلتي بين البنات.
كالتفاحة في أشجار الغابة كذلك حبيبي بين البنين. قد اشتهيت فجلست في ظله وثمره
حلو في حلقي. قد ظهرت الزهور في الأرض ووافى أوان القضب وسمع صوت اليمامة
في أرضنا.

(يا حمامتي التي في نخاريب الصخر وفي خفايا المعازل أريني محياك، أسمعيني
صوتك فإن

صوتك لطيف ومحياك جميل، إلى أن ينسم النهار وتنهزم الظلال. عد يا حبيبي وكن
كالظبي

أو كغفر الأيلة على جبال باتر.

(جميلة أنت يا خليلتي! جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك، وشعرك
كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد.

شفتاك كسمط من القرمز ونطقك عذب. خذاك كفلقة رمانة من وراء نقابك.
عنقك كبرج داود المبني للسلاح الذي علق فيه ألف مجن، جميع تروس الجبابة. إلى
أن ينسم النهار وتنهزم الظلال أنطلق إلى جبل المر وإلى تل اللبان. هلمي معي من لبنان
أيتها العروس. معي من لبنان انظري من رأس أمانة من رأس حرمون من مرابض الأسود
من جبال النمر. شفتاك تقطران شهدا أيتها العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف
ثيابك كعرف لبنان.

عين جنات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان، هبي يا شمال وهلمي يا جنوب انسمي
على جنتي فتنسكب أطيابها!)

إذا أنت سمعت ذلك ووعيته وعيا صحيحا، أدركت أن سليمان ينهل شعره من المنهل
ذاته الذي ارتوى منه المسيح وإن اختلف الموضوع.

ومن ذلك قول فيكتور هيغو، أحد عظماء الفنانين الذين نبغوا بعد الثورة الفرنسية، وهو

حوار بين الكواكب يرينا الشاعر به الإنسان وقد ضاع وكاد يختفي هو والأرض التي يسكنها

لضآلتهما في سعة الكون الواحد العجيب:

ما هذا الصوت التافه الضعيف الذي يهمس؟

أيتها الأرض، ما الغاية من دورانك، في أفقك الضيق المحدود؟

وهل أنت سوى حبة من الرمل مصحوبة بذرة من رماد؟

أما أنا، ففي السماء الزرقاء الشاسعة أرسم إطارا هائلا

فترى المسافة المكانية وهي فزعة مرعوبة، جمالي مشوها!

وهالتي، التي تحيل شحوب الليالي إلى حمرة قانية

ككرات من الذهب تعلو وتهبط متقاطعة في يد الحاوي،

تبعد، وتجمع، وتمسك سبعة من الأقمار الضخمة الهائلة!

وها هي الشمس تجيب:

سكوتا، هناك في زاوية من السماوات، أيتها الكواكب، أنتم رعاياي!

هدوء! أنا الراعي وأنتم الرعية.

إنكما كعربتين تسيران جنبا إلى جنب للدخول من الباب.

في أصغر بركان عندي، المريخ مع الأرض

يدخلان دون أن يلمسا جوانب المدخل!

وها هي ذي نجوم الدب الأصغر تضيء مثل

سبع أعين حية لها بدل الحبات شمس.

وها هو ذا طريق المجرة يرسم

غابة ناضرة جميلة مليئة بنجوم السماء!

أيتها الكواكب السفلى، إن مكاني من مكانكم في درجة من البعد

حتى أن نجومى المضيئة الثابتة الشبيهة بمجاميع الجزائر المتناثرة في الماء

وشموسي الكثيرة، ليست بالنسبة لنظركم الضعيف القاصر،

في زاوية بعيدة من السماء شبيهة بصحراء حزينة يتلاشى الصوت فيها،
سوى قليل من الرماد الأحمر قد انتثر في جوف الليل!
وها هي ذي نجوم مجرة أخرى تصور عوالم لا تقل عن تلك العوالم، متناثرة في الأثير،
ذلك المحيط الذي لا رمال فيه ولا حصباء في جوانبه، تذهب أمواجه ولكن لا تعود
أبدا
إلى شواطئه.

وأخيرا ها هو الإله يتحدث:

(ليس لدي إلا أن أنفخ، فيصبح كل شيء ظلاما (١))
وإليك ما يقوله علي بن أبي طالب في صفة الطاووس (٢):
(ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي إقامة في أحكم تعديل، ونضد ألوانه في أحسن
تنضيد. بجناح أشرح قصبه. وذنب أطال مسحبه. إذا درج إلى الأنثى نشره من
طيه وسما به مظلا على رأسه. تخال قصبه مداري من فضة، وما انبت عليه من
عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد. فإن شبهته بما أنبتت الأرض
قلت: جنى جني من زهرة كل ربيع. وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحلل أو
مونق عصب اليمن. وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين
المكمل: يمشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكا
لجمال سرباله وأصايغ وشاحه
(فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولا يكاد يبين عن استغاثته. ويشهد بصادق توجعه
لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية. وله في موضع العرف قنزعة خضراء
موشاة.
ومخرج عنقه كالإبريق، ومغرزها إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية، أو كحريرة
ملبسة مرآة ذات صقال

١ - نظرية الأنواع الأدبية، ترجمه عن الفرنسية الدكتور حسن عون.
٢ - ما تحتاج إليه من شرح المفردات والتعابير الواردة في هذه القطعة، تجده في فصل
(خلقة الطاووس) بهذا الكتاب.

(ومع فتح سمعه خط كمستدق القلم في لون الأبقوان أبيض يقق: فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق. وقل صبغ إلا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبصيص ديباجه ورونقه فهو كالأزاهير المبقوثة لم تربها أمطار ربيع ولا شمس قيط. وقد ينحسر

من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى، وينبت تباعا، فينحت من قصبه انحتات أوراق الأغصان ثم يتلاحق ناميا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه: لا يخالف سالف ألوانه، ولا يقع

لون في غير مكانه. إذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية، وتارة خضرة زبرجدية، وأحيانا صفرة عسجدية، فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين!)

وإليك قليلا من قوله في خلق السماء والأرض: (فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه. ثم أنشأ

سبحانه فتح الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطما تياره متراكما زخاره، حملة على متن الرياح العاصفة، والزرع القاصفة. ثم أنشأ سبحانه ريحا

أعتق مهبها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفتها بالفضاء ترد أوله إلى آخره وساجيه إلى مائره..)

وأوصيك خيرا بهذه الآيات الروائع التي تتحدث بها عبقرية الإمام إلى المركب الإنساني

جميعا فتصور له كيف يستوي الجليل واللطيف من الكائنات، والشمس والقمر، والماء والحجر، والكبير والصغير، والهين والصعب، في معنى الوجود. وكيف تشترك جميعا في صفة الكون فإذا هي متساوقة متعاونة في النشيد الأعظم: نشيد الوجود الواحد الذي

لا يجوز فيه تعظيم الدوحة العاتية على حساب النبتة النامية، ولا يصح فيه تمجيد البحر الواسع

واحتقار الساقية التي تضيع مياهها بين العشب والحصى.

يقول علي

(لو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر

النحلة. وما الجليل واللطيف، والثقل والخفيف، والقوي والضعيف، في خلقه إلا سواء

وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء. فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر،
والماء
والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول
هذه القلال الخ...) ثم استمع إليه يقول: (لا تنالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً من
عمره إلا بهدم
آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه، ولا يحيا له أثر
إلا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد، ولا تقوم له نابتة إلا
وتسقط

منه محصورة. وقد مضت أصول نحن فروعها!)
إنه الوجود الواحد يتكلم عن نفسه، بلسانه.

وفي خاطري هذه المشابهة بين مقطع من معلقة امرئ القيس، ومقاطع كثيرة من أدب
ابن أبي طالب، وهي تصب جميعاً في معنى الوحدة الوجودية الكاملة. ثم تزيد عن ذلك
بانطلاقة فذة إلى قهر الظالم والمعتدي، وإلى نصره الضعيف في النبات والأرض والبهيمة
والأرض الواطئة حتى يستوي الوجود قويا بهيا.
يقول الشاعر الكوني امرؤ القيس أولاً ما خلاصته:

لقد قعدت لذلك البرق أرقب من أين يجيء المطر، ويا لروعة ما رأيت. لقد أقبل المطر
من جهات أربع سيولا سيولا! رأيت من بعيد فكان يمينه في تقديري على جبل (قطن)
ويساره على جبلي (الستار) و (يدبل). وراح الماء ينبجس شديدا هنا وهناك فتقلب
سيوله الأشجار قلبا عتيا، ومر على جبل (القنان) برشاشه فأكره الوعول على النزول
عنه. بعد ذلك يقول الشاعر: وتيماء لم يترك بها جذع نخلة* ولا أطما إلا مشيدا
بجندل

كأن ثبيراً في عرانيين وبله* كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة* من السيل والغشاء فلكة مغزل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعه* نزول اليماني ذي العياب المحمل

كأن مكاكي الجواء غدية * نشاوى سلاف من رحيق مفلفل
كأن السباع فيه غرقى عشية * بأرجائه القصى، أنا بيش عنصل
فأنت ترى إلى امرئ القيس كيف يلحظ أن المطر قد أسقط نخل تيماء كله، وجرف
أبنيتها فلم يبق منها إلا المشيد بالجنادل والصخور. أما جبل (ثبير) المعتز بشموخه على
ما

ما حوله من الأرض الواطئة، فقد غطاه المطر إلا رأسه، فبدا كشيخ قوم ملتف بكساء
مخطط. وتتابع الأمطار طوفانها حول الجبال ثم تلقي أثقالها جميعا في الصحارى التي
ظلت زمنا

قاحلة لا نبت فيها ولا رواء، فإذا بها تنبت عشبا وزهرا ملونا يشبه الثياب الملونة
الحسنة التي
ينشرها التاجر اليماني إمام أعين الناس. وقد أحسن المطر إلى هذه الصحارى المجذبة
فإذا

هي رياض زاهية تغني بها الطير طربة سكرى.
أما الوحوش الضارية التي كانت تستبيح
لنفسها افتراس الضعيف من الحيوان والطيور، فقد ذلها المطر وأغرقها فطفت على الماء
كأنها جذور البصل البري.

وهكذا يبدو المطر في خاطر الشاعر الجاهلي الكبير، الذي يتابع رحلته حتى النهاية،
وكأنه يمثل قوة الوجود المدبرة. فهو قوي عادل كريم ينصر الضعفاء الممثلين بالأرض
الواطئة

وصغار الطير، فيملاً الوادي بالنبت والزهر واللون ويدخل الفرحة على قلوب العصافير
فتطرب وتغني. ويداعب الأقوياء الممثلين بالجبال التي يضايقها من كل جانب ويضعف
من

شأنها. ويفتك بذوي البطش الممثلين بالسباع الضارية فيقهرها ويغرقها ويجعلها تافهة!
وهذا علي يحس أمام الغيث ما أحسه امرؤ القيس من تمثيله القوة العادلة الكريمة،
فيقول

في خاتمة حديث طويل:

(فلما ألقى السحاب بعاع ما استقلت به (١) من العبء المحمول عليها، أخرج به
من هوامد الأرض النبات (٢) ومن زعر الجبال الأعشاب (٣) فهي تبهج بزينة رياضها

١ - البعاع: ثقل السحاب من الماء. وألقى السحاب بعاعه: أمطر كل ما فيه.

٢ - الهوامد من الأرض: ما لم يكن بها نبات.

٣ - زعر، مجمع أزعر، وهو: الموضع القليل النبات.

وتزدهي بما ألبسته من ريط أزهيرها (١) وحلية ما سمطت به (٢) من ناظر أنوارها
وجعل ذلك بلاغا للأنام ورزقا للأنعام!

ثم إن عليا يوجز الفكرة البعيدة في ما شاهده امرؤ القيس من عمل المطر في الجبال
والسباع، بهذه الكلمة: (من تعظم على الزمان أهانه).

وإن هذه الروائع التي عبرت بنا في هذا الفصل، لتنبع كلها من معين واحد بالرغم من
اختلاف موضوعاتها وتباين أغراضها وتباين ظروفها. ففيها جميعا هذه الأصالة في
الفكر والحس والخيال والذوق، التي تربط بين صاحبها وجملة الكائنات في وحدة

وجودية

مطلقة!

وأراك حيث رحى في أدب علي بن أبي طالب، شاعرا بهذه الأصالة التي تحدوه أبدا
إلى

اكتناه الروابط الخفية الكامنة وراء مظاهر الحياة والموت، ووراء الأشكال التي تختلف
على

الحقيقة الواحدة الثابتة التي لا تختلف. وما نزعت التوحيدية الجامحة إلا نزعة الأديب
الحق يريد

أن يركز الوجود، في عقله وقلبه على السواء، على أصول لا يجوز فيها قديم ولا
جديد!

ويتبين من نهج البلاغة أن نظريات ابن أبي طالب الاجتماعية والأخلاقية، تنبع بصورة
مباشرة أو غير مباشرة من هذه النظرة الواحدة الشاملة إلى الوجود. فما أقرب الموت
من

الحياة في سنة الوجود. وما أقرب طرفي الخير والشر. وما أكثر ما يجتمع الحزن
والسرور

في قلب واحد في وقت معا، والكسل والنشاط في جسد واحد. (فرب بعيد هو أقرب
من قريب - في أدب ابن أبي طالب - ورب رجاء يؤدي إلى الحرمان، وتجارة تؤول
إلى

الخسران). وليس عجيبا أن يجوز في الناس قول ابن أبي طالب: من حفر لأخيه بئرا
وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن تكبر على الناس ذل

فالدائرة الوجودية الواحدة تقضي على الناس والأشياء والكائنات جميعا بالخضوع
لقاعدتها

١ - ريط، جمع ريطة - بالفتح - وهي كل ثوب رقيق لين.

٢ - سمط الشيء: علقت عليه السموط وهي: الخيوط تنظم في القلادة.

التعادلية التي أدركها الإمام بحدسه وعقله وحسه على السواء، إدراكا عجيبا لشدة ما فيه من الوضوح ثم لكثرة ما يمد صاحبه بالقوة على الكشف، فإذا به يعبر عن هذا الإدراك بكلمات تؤلف قواعد رياضية تتناول المظاهر وتنفذ منها إلى ما وراءها من أصول وجودية عميقة ثابتة. وهكذا يستوي ابن أبي طالب وقمم الوجود على صعيد واحد من النظرة إلى الحياة الواحدة، والاحساس العميق بالوجود الواحد، فإذا بأدبه صرخات متلاحقة تنطلق من قلب عبقرى يريد أن ينفذ إلى الأشياء حتى يرى أغوارها فيطمئن إلى هذا الإدراك وحتى يعقل ما تباين منها ثابتا على قاعدة، وما اختلف منها نابعا من أصل، وما تباعد منها مضموما في وحدة طرفاها الأزل والأبد!

الأسلوب والعبقرية الخطابية
بيان لو نطق بالتقريع لانقض على لسان
العاصفة انقضاضا! ولو هدد الفساد
والمفسدين لتفجر براكين لها أضواء
وأصوات. ولو دعا إلى تأمل لرافق
فيك منشأ الحس وأصل التفكير
فساقك إلى ما يريده سوقا ووصلك بالكون
وصلا!

ويندمج الشكل بالمعنى اندماج الحرارة
بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء،
فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة
السييل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج
والرياح إذ تطوف!
إما إذا تحدث إليك عن بهاء الوجود
وجمال الخلق، فإنما يكتب على قلبك
بمداد من نجوم السماء!
ومن اللفظ ما له وميض البرق، وابتسامة
السماء في ليالي الشتاء.

هذا من حيث المادة. أما من حيث الأسلوب، فعلي بن أبي طالب ساحر الأداء.
والأدب

لا يكون إلا بأسلوب، فالمبنى ملازم فيه للمعنى، والصورة لا تقل في شئ عن المادة.
وأي فن كانت شروط الإخراج فيه أقل شأنًا من شروط المادة!

وإن قسط علي بن أبي طالب من الذوق الفني، أو الحس الجمالي، لمما يندر وجوده، وذوقه هذا كان المقياس الطبيعي الضابط للطبع الأدبي عنده. أما طبعه هذا فهو طبع ذوي

الموهبة والأصالة الذين يرون فيشعرون ويدركون فتنتطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم وتنكشف عنه مداركهم انطلاقا عفويا. لذلك تميز أدب علي بالصدق كما تميزت به حياته.

وما الصدق إلا ميزة الفن الأولى ومقياس الأسلوب الذي لا يخادع. وإن شروط البلاغة، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع لأديب عربي كما

اجتمعت لعلي بن أبي طالب. فإنشاؤه مثل أعلى لهذه البلاغة، بعد القرآن. فهو موجز على وضوح، قوي جياش، تام الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من إئتلاف، حلو الرنة في الأذن موسيقي الوقع. وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدة.

ويشتد ويعنف في غيرها من المواقف، ولا سيما ساعة يكون القول في المنافقين والمرأوغين

وطلاب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة. فأسلوب علي

صريح كقلبه وذهنه، صادق كطويته، فلا عجب أن يكون نهجا للبلاغة. وقد بلغ أسلوب علي من الصدق حدا ترفع به حتى السجع عن الصنعة والتكلف. فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجعة، أبعد ما يكون عن الصنعة،

وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع: (يعلم عجيج الوحوش

في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم

الماء بالرياح العاصفات!) أو إلى هذا القول من إحدى خطبه: (وكذلك السماء والهواء،

والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات، والألسن المختلفات الخ..) وأوصيك خيرا بهذا السجع الجاري مع الطبع: (ثم زينها بزينة الكواكب، وضيء الثواقب (١) وأجرى فيها سراجا مستطيرا (٢) وقمرا

-
- ١ - الثواقب: المنيرة المشرقة.
 - ٢ - سراجا مستطيرا: منتشر الضياء. ويريد به الشمس.

منيرا، في فلك دائر، وسقف سائر الخ). فإنك لو حاولت إبدال لفظ مسجوع في هذه البدائع جميعا، بآخر غير مسجوع، لعرفت كيف يخبو إشراقها، ويبهت جمالها، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقته وهما الدليل والمقياس. فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورة فنية

يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصناعة امتزاجا حتى لكأنهما من معدن واحد يبعث النثر شعرا

له أوزان وأنغام ترفق المعنى بصور لفظية من جوها ومن طبيعتها. ومن سجع الإمام آيات ترد النغم على النغم ردا جميلا، وتذيب الوقع في الوقع على قرارات لا أوزن منها على السمع ولا أحب ترجيعا. ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذ حين، ثم هذه الكلمات الشهييات على الأذن والذوق جميعا: (أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فاعمل في خيرا، وقل خيرا!) وإذا قلنا إن أسلوب علي تتوفر فيه صراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق، فإنما نشير إلى القارئ بالرجوع إلى (روائع نهج البلاغة) هذا ليرى كيف تتفجر كلمات علي من ينابيع بعيدة القرار في مادتها، وبأية حلة فنية رائعة الجمال تمور وتجري. وإليك هذه التعابير الحسان في قوله: (المرء مخبوء تحت لسانه) وفي قوله: (الحلم عشيرة)

أو في قوله: (من لان عوده كثفت أغصانه) أو في قوله: (كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع) أو في قوله أيضا: (لو أحبني جبل لتهافت). أو في هذه الأقوال

الرائعة: (العلم يحرسك وأنت تحرس المال. رب مفتون بحسن القول فيه. إذا أقبلت الدنيا

على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبتة محاسن نفسه. ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء. افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئا فإن صغيره كبير وقليله كثير. هلك خزان المال وهم أحياء. ما متع غني إلا بما جاع به فقير!).

ثم استمع إلى هذا التعبير البالغ قمة الجمال الفني وقد أراد به أن يصف تمكنه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء قال: (ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها...). فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحق بصورة مطلقة ولا تفوته إلا إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها.

ويبلغ أسلوب علي قمة الجمال في المواقف الخطابية، أي في المواقف التي تثور بها عاطفته

الجياشة، ويتقد خياله فتعتلج فيه صور حارة من أحداث الحياة التي تمرس بها. فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفق على لسانه تدفق البحار. ويتميز أسلوبه، في مثل هذه المواقف، بالتكرار بغية التقرير والتأثير، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين. وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام إلى تعجب إلى

إلى استنكار. وتكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفن. وإليك مثلاً على هذا خطبة الجهاد المشهورة، وقد خطب علي بها الناس لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عامله عليها: (هذا أخو غامد (١) قد بلغت خيله الأنبار وقتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين.

(وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينزح حجلها، وقلبها، ورعائها، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً.

(فيا عجباً. والله يميم القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. فقبحا لكم حين صرتم غرضاً يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون ويعصى الله وترضون!)

فانظر إلى مقدرة الإمام في هذه الكلمات الموجزة. فإنه تدرج في إثارة شعور سامعيه حتى

وصل بهم إلى ما يصبو إليه. وسلك إلى ذلك طريقاً تتوفر فيه بلاغة الأداء وقوة التأثير. فإنه أخبر قومه بغزو سفيان بن عوف الأنبار وفي ذلك ما فيه من عار يلحق بهم. ثم أخبرهم

بأن هذا المعتدي إنما قتل عامل أمير المؤمنين في جملة ما قتل، وبأن هذا المعتدي لم يكتف

بذلك بل أغمد سيفه في نحور كثيرة من رجالهم وأهليهم.

١ - إذا شئت شرحاً للمفردات والتعابير الغريبة الواردة في هذه الخطبة، فارجع إليها في مكانها من هذا الكتاب

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجه الإمام إلى مكان الحمية من السامعين إلى مثار العزيمة

والنخوة من نفس كل عربي، وهو شرف المرأة. وعلي يعلم أن من العرب من لا يبذل نفسه إلا للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة، فإذا هو يعنف هؤلاء القوم على القعود

دون نصرة المرأة التي استباح الغزاة حماها ثم انصرفوا آمنين، ما نالت رجلا منهم طعنة ولا أريق لهم دم.

ثم إنه أبدى ما في نفسه من دهش وحيرة من أمر غريب: (فإن أعداءه يتمسكون بالباطل

فيناصرونه، ويدينون بالشر فيغزون الأنبار في سبيله، فيما يقعد أنصاره حتى عن مناصرة الحق فيخذلونه ويفشلون عنه.

ومن الطبيعي أن يغضب الإمام في مثل هذا الموقف، فإذا بعبارته تحمل كل ما في نفسه من هذا الغضب فتأتي حارة شديدة مسجعة مقطعة ناقمة: فقبحا لكم حين صرتم غرضا يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون. ويعصى الله وترضون!)

وقد تثور عاطفته وتتقطع فإذا بعضها يزحم بعضها على مثل هذه الكلمات المتقطعة المتلاحقة: (ما ضعفت، ولا جنبت، ولا خنت، ولا وهنت!) وقد تصطلي هذه

العاطفة بألم تائر يأتيه من قوم أراد لهم الخير وما أرادوه لأنفسهم لغفلة في مداركهم ووهن

في عزائمهم فيخطبهم بهذا القول التائر الغاضب قائلا: (ما لي أراكم أيقاظا نوما، وشهودا غيبا، وسامعة صماء، وناطقة بكماء الخ)

والخطباء العرب كثيرون، والخطابة من الأشكال الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام

ولا سيما في عصر النبي والخلفاء الراشدين لما كان لهم بها من حاجة. أما خطيب العهد

النبوي الأكبر فالنبي لا خلاف في ذلك. أما في العهد الراشدي وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة، فإن أحدا لم يبلغ ما بلغ إليه علي بن أبي طالب في هذا النحو. فالنطق السهل

لدى علي كان من عناصر شخصيته وكذلك البيان القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة

جميعا. ثم إن الله يسر له العدة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقومات أخرى على ما مر بنا. فقد ميزه الله بالفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والبلاغة الآسرة، ثم بذخيرة.

(३१)

من العلم انفرد بها عن أقرانه، وبحجة قائمة، وقوة إقناع دامغة، وعبقورية في الارتجال نادرة. أضف إلى ذلك صدقه الذي لا حدود له وهو ضرورة في كل خطبة ناجحة، وتجاربه الكثيرة المرة التي كشفت لعقله الجبار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحركاته. ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان

العميق، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية. وإنه من الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ من اجتمعت لديه كل هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذاً

غير علي بن أبي طالب ونفر من الخلق قليل، وما عليك إلا استعراض هذه الشروط، ثم استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي، لكي تدرك أن قولنا هذا صحيح لا غلو فيه.

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجاش شديد الثقة بنفسه وبعده القول. ثم إنه قوي الفراسة

سريع الإدراك يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب، زاخر جنانه بعواطف الحرية والإنسانية والفضيلة، حتى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه أدرك

القوم بما يحرك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الخامدة. أما إنشاؤه الخطابى فلا يجوز وصفه إلا بأنه أساس في البلاغة العربية. يقول أبو الهلال العسكري صاحب (الصناعتين): ليس الشأن في إيراد المعاني - وحدها - وإنما هو في جودة اللفظ، أيضاً وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف.

من الألفاظ ما هو فخم كأنه يجر ذبول الأرجوان أنفة وتيها. ومنها ما هو ذو قعقة كالجنود الزاحفة في الصفيح. ومنها ما هو كالسيف ذي الحدين. ومنها ما هو كالنقاب

الصفيق يلقي على بعض العواطف ليستر من حدتها ويخفف من شدتها. ومنها ما له ابتسامة

السماء في ليالي الشتاء! من الكلام ما يفعل كالمقرعة، ومنه ما يجري كالنبع الصافي. كل ذلك ينطبق على خطب علي في مفرداتها وتعابيرها. هذا بالإضافة إلى أن الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين، فكيف بها إذا كانت،

كخطب ابن أبي طالب تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوته وجلاله.

وإليك شيئاً مما قلناه في الجزء الثالث من كتابنا (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) بصدد بيان الإمام، لا سيما ما كان منه في خطبه:
نهج للبلاغة أخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر، مترابط بآياته متساوق متفجر بالحس المشبوب

والإدراك البعيد، متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول أو

الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء، فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج والريح إذ تطوف. أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو كائن عليه من الوحدة

لا تفرق بين عناصرها إلا لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كون! بيان لو نطق بالتفريع لانقض على لسان العاصفة انقضاضاً ولو هدد الفساد والمفسدين لتفجر براكين لها أضواء وأصوات! ولو انبسط في منطق لخاطب العقول والمشاعر فأقفل

كل باب على كل حجة غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأمل لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريده سوقاً، ووصلك بالكون وصلًا، ووجد فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي! أما إذا تحدث إليك عن بهاء الوجود

وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنما يكتب على قلبك بمداد من نجوم السماء! بيان هو بلاغة من البلاغة وتنزيل من التنزيل. بيان اتصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه أن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق!

وخطب علي جميعا تنضح بدلائل الشخصية حتى لكأن معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما تشتعل النار في موقدها تحت نفخ

الشمال. فإذا هو يرتجل الخطبة حسا دافقا وشعورا زاخرا وإخراجا بالغاً غاية الجمال. وكذلك كانت كلمات علي بن أبي طالب المرتجلة. فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة

أن تكون من حيث الصدق وعمق الفكرة وفنية التعبير حتى أنها ما نطقت بها شفتاه ذهبت مثلاً سائراً.

فمن روائعه المرتجلة قوله لرجل أفرط في مدحه بلسانه وأفرط في اتهامه بنفسه: أنا دون

ما تقول وفوق ما في نفسك).

ومن ذلك أنه لما اعتزم أن يقوم وحده لمهمة جليلة تردد فيها أنصاره وتخاذلوا) جاءه هؤلاء وقالوا له وهم يشيرون إلى أعدائه: يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم. فقال من فوره:

(ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، فإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي كأني المقود وهم القادة). ولما قتل أصحاب معاوية محمدا بن أبي بكر فبلغه خبر مقتله قال: (إن حزننا عليه قدر سرورهم به، ألا إنهم نقصوا بغيبنا ونقصنا حبيباً).

وسئل: أيهما أفضل: العدل أم الجود؟ فقال: (العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما).

وقال في صفة المؤمن،. مرتجلاً:

(المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شئ صدرا وأذل شئ نفسا. يكره الرفعة ويشنأ السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته. شكور صبور، سهل الخليقة، لين العريكة).

وسأله جاهل متعنت عن معضلة، فأجابه على الفور: (اسأل تفقها ولا تسأل تعنتا فإن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم، وإن العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت!)

والخلاصة أن علي بن أبي طالب أديب عظيم نشأ على التمرس بالحياة وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالك ما يقتضيه الفن من أصالة في شخصية الأديب، ومن ثقافة خاصة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة.

أما اللغة، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشلوس في المجلد الأول من كتابه (رحلة إلى الشرق) هذا القول الذكي: (اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعا بين سائر لغات الأرض بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتصوره بدقة، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلد صراخ الحيوانات ورققة المياه الهاربة وعجيج الرياح وقصف الرعد) أما هذه اللغة بما ذكر مرشلوس من صفاتها وبما لم يذكر، فإنك واجد أصولها وفروعها، وجمال ألوانها وسحر بيانها في أدب الإمام علي!
وكان أدبا في خدمة الإنسان والحضارة!

العدالة الكونية
وما يمثله علي منها

تكافؤ الوجود
وأحس علي أن هذا الكون العظيم
متعاون متكافل فكان من ذلك أن الريح
إذا اشتدت حركت الأغصان تحريكا
شديدا، وإذا أجفلت قلعت الأشجار
وهاجت لها العناصر، وأنها إذا لانت
وجرت فويق الأرض جريا خفيفا
سكرت بها صفحات الماء وسكنت تحتها
الأشياء!
وأدرك كذلك أن قوة الوجود الشاملة ترعى
هشيم النبات بقانون ترعى به الورق
الأخضر والزرع الذي استوى على سوقه
واهتز للريح!
وأسقط ابن أبي طالب نظرية التجار بقول
تناوله من روح الوجود وكأنه يشارك به
الكون في التعبير عما في ضميره!
نظرة واحدة يلقيها المرء على الكون الخارجي وأحواله، على النجوم الثابتة في سعة
الوجود
والكواكب السابحة في آفاق الأبد، وعلى الشمس المشرقة والسحاب العارض والريح
ذات.
الزيف، وعلى الجبال تشمخ والبحار تقصفها القواصف أو يسجو على صفحاتها الليل،

تكفيه لأن يثق بأن للكون قانونا وأن لأحواله ناموسا واقعا كل منهما تحت الحواس وقائما بكل مقياس

ونظرة واحدة يلقيها المرء على ما يحيط به من الطبيعة القريبة وأحوالها: على الصيف إذ يشتد حره وتسكن ريحه، والخريف إذ يكتتب غابه وتتناوح أهواؤه وتعبس فيه أقطار السماء، والشتاء إذ ترعد أجواؤه وتضطرب بالبروق وتندفع أمطاره عبابا يزحم عبابا وتختلط غيومه حتى لتخفي عليك معالم الأرض والسماء، والربيع يبسط لك الدنيا آفاقا ندية وأنهارا غنية وخصبا ورواء وجنانا ذات ألوان، كافية لأن تجعله يثق بأن لهذه الطبيعة قانونا وأن لأحوالها ناموسا واقعا كل منهما تحت الحواس وقائما بكل مقياس.

ونظرة فاحصة واحدة يلقيها المرء على هذي وذاك، كافية لتدله على أن هذه النواميس والقوانين صادقة ثابتة عادلة، يقوم منطقتها الصارم بهذه الصفات. وفيها وحدها ما يبرر وجود هذا الكون العظيم!

ألقى ابن أبي طالب تلك النظرة على الكون فوعى وعيا مباشرا ما في نواميسه من صدق وثبات وعدل فهزه ما رأى وما وعى وجرى في دمه ومشى في كيانه واصطنخ فيه إحساسا وفكرا، فتحركت شفاته تقولان، (ألا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض). ولو حاولت أن تجمع الصدق والثبات والعدل في كلمة واحدة لما وجدت لفظة تحويها

جميعا غير لفظة (الحق). ذلك لما يتحد في مدلولها من جوهر الكلمات الثلاث. وأدرك ابن أبي طالب في أعماقه أن المقايسة تصح أصلا وفرعا بين السماء والأرض اللتين

قامتا بالحق واستوتا بوجوهه المتلازمة الثلاثة: الصدق والثبات والعدل، وبين الدولة التي لا بد لها أن تكون صورة مصغرة عن هذا الكون القائم على أركان سليمة ثابتة، فإذا به

يحيا في عقله وضميره هذه المقايسة على صورة عفوية لا مجال فيها لواغل من الشعور أو

لغريب من التفكير، ثم لا يلبث أن يقول: (وأعظم ما افترض من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي

فريضة فرضها الله لكل على كل، فجعلها نظاما لألفتهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا يصلح الولاية إلا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه،

وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، واعتدلت معالم العدل وجرت على أذلالها السنن (١) فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة. وإذا غلبت الرعية واليهما أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وتركت محاج السنن فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل (٢) ولا لعظيم باطل فعل. فهنالك تذلل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد.

وأوصيك خيرا بهذا الإحكام للروابط العامة الكبرى بين عناصر الدولة على لسان علي، ثم بين الأعمال الخيرة المنتجة وبين ثبوت هذه العناصر على أسس من الحق، أو قل من الصدق والثبوت والعدل: وجوه الحق الثلاثة التي تقوم بها السماوات والأرض. وأحس علي أن هذا الكون العظيم متعاون متكافل فكان من ذلك أن الريح إذا اشتدت حركت الأغصان تحريكا شديدا، وإذا أجمفت قلعت الأشجار وهاجت لها العناصر، وأنها إذا لانت وجرت فويق الأرض جريا خفيفا سكرت بها صفحات الماء وسكنت تحتها الأشياء

وأحس أن الشمس إذا ألفت على الأرض نورها بدت معالم الأرض للعيون والأذهان وإذا خلتها خلت عليها من الظلمة ستارا. وأن النبتة تنمو وتزهو وتورق وقد تثمر، وهي شئ يختلف في شكله وغايته عن أشعة النهار وجسم الهواء وقطرة الماء وتراب الأرض ولكنها لا تنمو ولا تورق إلا بهذه الأشعة وهذا الجسم وهذه القطرة وهذا التراب. وأحس أن الماء الذي (تلاطم تياره وتراكم زخاره) كما يقول، إنما (حمل على متن الريح العاصفة والزعزاع القاصفة. وأن الريح التي (أعصف الله مجراها وأبعد منشأها مأمورة - على بعد هذا المنشأ - (بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار تعصف به

١ - أذلال، جمع ذل - بكسر الذال - وذل الطريق: محجته، وهي جادته، أي وسطه. وجرت السنن أذلالها أو على أذلالها: جرت على وجوهها.
٢ - أي، إذا عطل الحق لا تأخذ النفوس وحشة أو استغراب لتعودها تعطيل الحقوق وأفعال الباطل ولاستهانتها بما تفعل.

عصفها بالفضاء وترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره (١) حتى يعب عبابه).
ومن زينة الأرض وبهجة القلوب هذه النجوم وهذي الكواكب، وضياء الثواقب (٢)
والسراج

المستطير (٣) والقمر المنير!

أحس ابن أبي طالب من وراء ذلك جميعاً أن هذا الكون القائم بالحق، إنما ترتبط
عناصره بعضها ببعض ارتباط تعاون وتساند، وأن لقواه حقوقاً افتترضت لبعضها على
بعض، وأنها متكافئة في كل وجوهها متلازمة بحكم وجودها واستمرارها.
فأدرك في أعماقه أن المقايضة تصح أصلاً وفرعاً بين هذه العناصر المتعاونة المتكافئة،
وبين البشر الذين لا بد لهم أن يكونوا متعاونين متكافئين بحكم وجودهم واستمرارهم،
فهم من أشياء هذا الكون يجري عليهم ما يجري على عناصره جميعاً من عبقرية
التكافل الذي

يراه علي فرضاً عليهم لا يحيون إلا به ولا يبقون. فإذا به يلف عالم الطبيعة الجامدة
وعالم

الإنسان بومضة عقل واحدة، وانتفاضة إحساس واحدة، ليستشف عدالة الكون القائم
على وحدة من الصدق والثبات والعدل، مطلقاً هذا الدستور الذي يشارك به الكون في
التعبير عن ضميره، قائلاً:

(ثم جعل من حقوقه حقوقاً افتترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها متكافئاً في
وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض!)

ومن هذا المعين أيضاً قول له عظيم يقرر به أن دوام نعمة من النعم مرهون بما
فرض على صاحبها من واجب طبيعي نحو إخوانه البشر، وأن عدم القيام بهذا الواجب
كاف

وحده لأن يزيلها ويفنيها:

(من كثرت النعم عليه كثرت الحوائج إليه. فمن قام فيها بما يجب عرضها للدوام
والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء.

١ - الساجي: الساكن. والمائر: الذي يذهب ويجيء، أو المتحرك مطلقاً. وعب عبابه::
ارتفع علاه.

٢ - الثواقب: المنيرة المشرقة.

٣ - المستطير: المنتشر الضياء. والسراج المستطير: الشمس.

ففي هذين القولين من التعبير عن عدالة الكون والناس من موجوداته ما لا يحتاج إلى كثير من الايضاح. فحقوق العباد - على لسان علي - يكافئ بعضها بعضا. فهي أشبه

ما تكون بحق الماء على الريح، والنبته على الماء، والماء على الشمس، والشمس على قانون

الوجود. وهذه السنة التي تفرض على الإنسان ألا يستحق شيئا من الحقوق إلا بأدائه حقوقا

عليه، ليست إلا سنة الكون العادلة القائمة بهذا العدل.

ولينظر القارئ في هذا الأمر نظرا سديدا ثم ليقل رأيه في ما رأى. فإنه إن فعل أدرك لا شك أن هذه القاعدة التي بلغ ابن أبي طالب بها إلى جذور العدالة الكونية، ثابتة لا تغير نفسها ولا شذوذ ينقضها.

فعناصر هذا الكون لا تأخذ إلا قدر ما تعطي، ولا يكسب بعضها إلا ما يخسره بعضها الآخر. فإذا أخذت الأرض من الشمس نورا ودفئا، أعطت الوجود من عمرها قدر ما أخذت. وكذلك إذا أخذت من الليل ظلا يغمرها. وإذا تناولت الزهرة من عناصر الكون

الكثيرة ما يحييها وينميها ويعطيها عبيرا شهيا، فلسوف يأخذ النور والهواء من لونها وعطرها بمقدار ما أعطاها، حتى إذا تكامل انعقادها وبلغت قمة حياتها، تعاضم مقدار ما تدفعه من عمرها، فإذا بالحياة والموت يتنازعاها حتى تسلم إليه أوراقها وجذعها.

أما الأرض فتبتلع منها كل ما كانت قد منحتها إياه.

والبحر لا يستعيد إلى جوفه إلا ما أعطى السماء من غيوم والبر من أمطار. وكذلك الإنسان في حياته الخاصة. فهو لا يحظى بلذة إلا بفراق أخرى يدفعها، قاصدا أو غير قاصد عوضا عما أخذ. وهو لا يولد إلا وقد تقرر أنه سيموت. يقول علي: (ومالك الموت هو مالك الحياة!)

وعن هذا التوازن الحكيم في قانون الكون برحابه وأفلاكه، وأرضه وسمائه، وجامداته وأحيائه، يعبر ابن أبي طالب بهذه الكلمة التي تجمع سداد الفكر إلى عنف الملاحظة إلى

عبقرية البساطة: (ولا تنال نعمة إلا بفراق أخرى!)

ولينظر الناظرون في هذا القول فإنهم إن فعلوا وثقوا بأنه الواقع الذي يرتسم كلمات هي أشبه بالقاعدة الرياضية التي لا يمكن الخروج عليها.

أما في الحياة العامة، فليس بين شؤون الإنسان شأن واحد يشذ عن هذه القاعدة التي انتزعها علي بن أبي طالب من مادة الكون العظيم. فحقتك على مجتمعك هو أن يقيم هذا

المجتمع ما تعطيه، كمية ونوعا، ثم أن تأخذ منه بمقدار ما أعطيت. أما إذا حصلت من المكافأة على أقل مما أعطيت، فإن نصيبك عند ذلك ذاهب إلى سواك وإن سواك يتمتع بخير

أنت صاحبه ولا شك، وإنك في النتيجة مغصوب مظلوم. وأما إذا أخذت من المكافأة فوق

ما أعطيت فإن نصيب غيرك منها ذاهب إليك، وإن سواك من الخلق يجوع بما أكلت، وإنك بذلك غاصب ظالم. ووجود المظلوم والظالم في المجتمع مفسدة له ومنقصة في موازين العدالة الاجتماعية التي لا تستقيم إلا إذا دخلت في نطاق مريح من العدالة الكونية

والبطل لا يمكن أن يكون قاعدة بل الحق هو القاعدة. و (الحق لا يبطله شيء) في قانون الكون! وهو كذلك في مذهب ابن أبي طالب.

والنظر في الساطع العظيم من مظاهر العدالة الكونية، لم يكن ليلهي عليا عن النظر في ما خفي منها ودق. وشأنه في ذلك شأن عباقرة الشعراء الذين تولف دقائق الأشياء لديهم، في المادة والمعنى، ما تولفه عظامها فهم لا يفرقون فيها بين كبير وصغير، فهي بالمنشأ

واحدة وهي كذلك بالدلالة.

وليس للذي يبهر الأنظار حساب في عقولهم وقلوبهم يعلو على حساب ما ينزوي في المخابئ وبين الظلال. ورب نظرة تجري من الأحاسيس في كيان هؤلاء ما لا تجريه ينابيع

الكلام! ورب إشارة يدركون فيها من التصريح ما لا يروونه بألف إعلان! ورب زهرة في كنف صخرة ينعمون لديها من الشعور بعظمة الوجود بما لا ينعمون به لدى الدوحة العاتية. بل رب صغير في نظرهم أجل من كبير، وقليل أكثر من كثير! وأرى من الموافق أن أذكر في هذا المجال نتفة من حديث طويل سقته بصدد الكلام على موقف صاحب الاحساس العظيم والفكر المحيط من الكون الذي يستوي خفيه وظاهره في الدلالة

علي ما فيه من جليل، قلت:

(و كأنني بهذه الطبيعة تمثل للشاعر جمال الحرية التي يشتهي، إذ ترسل الريح حين تشاء وكيف تشاء لا يهمها أسخط الناس عليها أم رضوا قانعين! وتفجر الينابيع من

الصخر، حين تروم، ومن رخي التراب، وتجريها هادئة في السهل أو تقذف بها من أعالي الجبال. وتبرز من صدرها أشجارا وصخورا وقمما ووديانا على طريقته التي تريد

لا يعينها أن تنبت الزنابق إلى جانب الشوك أو تعلق إبر السم وردا أخضر العود طيب الريح ولا تتقيد بمعرفة تقوم بتحفير الهشيم اليابس وتعظيم الأخضر الفينان، وبالسخرية من صغار الهوام تطل من ثقوب الصخور، تمجيدا لشراسة القوي من الوحش يفترس الضعيف (١).

بهذه النظرة وبهذا الشعور واجه ابن أبي طالب مظاهر الوجود الواحد في الطبيعتين الصامته والحية، وأحس إحساسا بديها وعميقا معا بأن قوة الوجود الشاملة ترعى هشيم النبات بقانون ترعى به الورق الأخضر والزرع الذي استوى على سوقه واهتز للريح. وأنها تعني بالفسيل (٢) الضئيل من شجر الأرض كما تعني بالعتي من الدوح العظيم. أما البهم والحشرات والغوغاء (٣) وصغار الطير، فإن الطبيعة لم تبذل في رعايتها نصيبا أقل مما تبذله في رعاية الهائل من الوحش ونسر الفضاء فلكل من المخلوقات مكانه في سعة الوجود ولكل حقه بهذا الوجود. لذلك لم يمنع الطود الشامخ عن ابن أبي طالب رؤية

الحصاة وذرة التراب. ولم يفته وهو ينظر إلى الطاووس أن يلتفت إلى النملة المتواضعة الدابة

في خفايا الأرض بين حطامها وحصاها، فإذا هي في الوجود خلق جليل وشئ كثير. وما كان علي ليرى في الطاووس والنملة اللذين يبسطهما النهار، شيئا يزيد في معنى الوجود

وفي قيمته عما كان يراه في الخفافيش (٤) التي جعل لها الليل نهارا وقبضها الضياء الباسط لكل شئ. وإنما كان يرى من غوامض الحكمة فيها ما يراه في عظام المخلوقات.

ويكفي هذا المخلوق في نهج علي، أن يكون ذا رمق - أي أن يكون حيا - لتكفل له قوة الوجود الشاملة كفلا أساسيا ما يقيه خطر الموت قبل حينه. فإن العدالة الكونية ما

أقامت حيا من الأحياء إلا وعدلت وجوده بما يمسك عليه مدة بقائه. وهذا ما يعنيه عبقرى

١ - باختصار عن كتاب (فاغتر والمرأة) للمؤلف صفحة ١٦٣ - ١٦٤.

٢ - الفسيل: صغار الشجر.

٣ - البهم: صغار أولاد الضأن والمعز. الغوغاء: صغار الجراد.

٤ - راجع، في هذا الكتاب، روائع علي في وصف الطاووس والخفاش.



(٤٥)

الملاحظة الدقيقة الضابطة علي بن أبي طالب بقوله: (ولكل ذي رmq قوت، ولكل حبة آكل).

أما إذا حيل بين ذي الرmq وقوته، والحبة وآكلها، فإن في هذا المنع اعتداء على موازين العدالة الكونية وافتراء على قيمة الحياة ومعنى الوجود. يقول علي: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة على أن أعصي الله في نملة أسلبها لب شعيرة، ما فعلت!)

أما الاعتداء على موازين العدالة الكونية، فإن العقاب عليه قائم بطبيعة هذه العدالة العامة نفسها التي تقاضي الفاعل مقاضاة لا لين فيها ولا قسوة، وإنما عدل ومجازاة. ومن ثم كانت النظرة العلوية الجليلة إلى معنى الحياة الواحدة بكثيرها وقليلها، بكبيرها وصغيرها. فالعدالة الكونية التي وازنت بين الأحياء ورعتهم في مختلف حالاتهم وأقامت

بينهم أعمالاً مشتركة وحقوقاً متبادلة وواجبات متعادلة، لم تفرق بين مظهر من مظاهر الحياة

وآخر، ولم تأمر بأن يعتد قوي على ضعيف لما خصص به القوي من أداة العتو، ولم تأذن للكثير بأن يغبن القليل حقه بما خصص به من صفات الكثرة. وهي من ثم لا تغتفر ظلم القليل بحجة مصلحة الكثير. فالذي يغبن كائناً حياً في نهج ابن أبي طالب فكأنما غبن الكائنات الحية جميعاً. ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قبل النفوس جملة. ومن آذى ذا رmq فكأنما آذى كل ذي رmq على وجه الأرض. فالحياة هي الحياة في نهجه واحترامها

هو الأصل وعليه تنمو الفروع.

ففي نظريات عدد كبير من المفكرين والمشرعين، وفي (آراء) معظم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم رجال سياسة، يجوز الاعتداء على العدد القليل من الناس في سبيل العدد الكثير.

وفي حساب هؤلاء، لا يقاس الخير إلا بسلامة العدد الكثير، ثم في بلوغه ما يصبو إليه من حال. فإذا قتل بحادث اعتداء ألف من الخلق، فالأمر فظيع، وإذا قتل ألفان فالأمر أفظع. وهكذا دواليك. أما إذا قتل إنسان واحد، بمثل هذا الحادث، فالقضية هينة والأمر بسيط. فإن دفاتر تجار الأرواح عند ذلك لا يسقط منها الكثير. أما جداول الضرب

وعمليات الجمع والقسمة، فن الميسور تعديلها بعملية حساب بسيطة.

أما ابن أبي طالب فيسحق نظريات هؤلاء التجار، بقول يتناوله مباشرة من روح الوجود الذي لا قيمة لديه للأرقام في معنى الحياة، بل للحياة نفسها:

(فوالله لو لم يصيبوا من الناس إلا رجلا واحدا معتمدين (١) لقتله، بلا جرم جره
لحل لي قتل ذلك الجيش كله).
والواضح هنا أن الموضوع ليس (قتل الجيش كله) بل تمكين فكرة احترام الحياة في
أذهان أصحاب السلطة، ولفت أنظارهم إلى أن قتل نفس واحدة، قصدا واعتمادا،
إنما يساوي قتل الخلق جميعا.
ولو أننا قسنا نظرة علي بن أبي طالب في هذا المجال بنظرات كثير من المفكرين الذين
رأوا أن موازين العدالة لا تتحرك إلا بالقوة والكثرة، لبدا لنا كيف ينحدرون حيث
يسمو، وكيف يتزمتون ويغلظون حيث يرحب أفقه وتعلو على يديه قيم الحياة، ففيما
يطبل بعض هؤلاء ويزمرون لما (اكتشفوه) من آراء ونظريات تبيح للقوي أن يعتز
بقوته وحسب، وللكتير أن تتسع آماله بهذه الكثرة وحدها - وفي كل ذلك اعتداء على
قانون الحياة العادل، وعلى إرادة الإنسان القادرة المطورة الخيرة - نرى ابن أبي طالب
يكشف عما هو أسمى بمقياس الحياة نفسها لأنه حقيقة، وبمقياس الإرادة الإنسانية لأنه
خير،

فيقول ببساطة العظيم: (ورب يسير أغنى من كثير) ثم يوضح بقول أجل وأجمل،
(وليس امرؤ، وإن عظمت في الحق منزلته، بفوق أن يعان على ما حملة الله
من حقه (٢) ولا أمرؤ، وإن صغرت النفوس واقتحمته العيون (٣) بدون أن يعين
على ذلك أو يعان عليه!)
وفي هذين القولين ينقل ابن أبي طالب للناس مظهرا من مظاهر العدالة الكونية البادية
حيث
أمعنت النظر، ويقرر حقيقة طالما خفيت عن العقول التي تحصر نفسها في أضيق
نطاق.
يقرر علي أن المظاهر البراقة الفضفاضة ليست في حكم الواقع الوجودي إلا غثا من
الوجود تافها لا قيمة له ولا شأن، وقد يبهر بها العاديون من الخلق وأهل الحماقات
والأغنياء

١ - معتمدين: قاصدين.
٢ - بفوق أن يعان: أي بأعلى من أن يحتاج إلى الإعانة.
٣ - اقتحمته العيون: حقرتة. بدون أن يعين: بأعجز من أن يساعد غيره.

والمصنفون لكل لماع تافه فارغ، ولكن هذا الانهيار لا يلبث. أن يتلاشى فجأة حين تطل شمس الحقيقة، وحين يكنس نورها العظيم ما خاله العاديون نورا وهو غش للعيون، وحين تعصف رياح الوجود العادل بعصافة التبن الخفيف. ومن التاريخ والحاضر دلائل لا

تحصى على هذا الاضطراب في المقاييس لدى الأفراد والجماعات، وهو اضطراب يستلزم نتائج تؤذي الحضارة والحياة والانسان لما فيها من انحراف عن موازين العدالة الكونية.

فلو كنت تعيش في فترة من العصور الوسطى بأوروبا، مثلا، لشاهدت في بعض أيامك مواكب من الناس تتلوها مواكب بإحدى الساحات العامة من هذه المدينة أو تلك، ذلك

قصد التهليل والتصفيق لمخلوق من الناس مزركش الألبسة عاصب الرأس بالزمرد والزبرجد

والحجارة الكريمة المنظومة. ولشاهدت رجلا يسير على الرصيف وحيدا، عصبي الخطوة

عنيف النظرة، لا يعنيه أمر المهللين ولا يعينهم أمره. فهم يهتفون بحياة (عظيم) وهو إذ ذاك (ليس بعظيم) ثم أشرقت الشمس بعد زمن فطغت على الظلمة وأبرزت الأشياء في

مواضعها الحقيقية. فماذا ترى عند ذاك؟ ترى أن هؤلاء الناس المهللين المصنفين - وهم

بهذا المقام بمنزلة اللاشيء - إنما كانوا يهتفون لمخلوق تافه يدعى لويس الرابع عشر مثلا،

أو لنذل من الأندال يدعى شارل الخامس، أو لصغير كل الصغارة يدعى شارل الأول، أو لغيرهم ممن يحملون أسماء تليها أرقام... دلالة على الصغارة. ثم ماذا يتضح لك بعد

ذاك؟ يتضح أن رجل الرصيف الذي لم يهلل له القوم ولم يهتفوا بحياته، إنما هو عظيم حق

يدعى موليير، أو ملتون، أو غاليليو. وتجري الأيام، فإذا بأصحاب الأسماء التي تليها الأرقام، ليسوا إلا التفاهة كلها. وإذا بالمشاة على الرصيف ولا أرقام لأسمائهم، ولا مهللين لهم، ليسوا إلا العظمة كلها. ويطوي النسيان التافهين، ويطوي معهم أولئك (اللاشيء) من المصنفين الهاتفين. ويبرز هؤلاء على هامة الوجود، وتنزلهم الإنسانية من نفسها منازل الشموس من الظلمات. ويبرز معهم نفر قليل من الخلق هم الذين فهموهم،

وقدروهم قدرهم العظيم، وتدفأوا بحرارتهم كما تتدفأ الأرض بنور الظهيرة، وأدركوا ما أدركه علي بن أبي طالب إذ قال: (رب يسير أنمي من كثير!)
إنها العدالة الكونية التي تزن كل حي بميزانها العظيم، وتضعه موضعه، لا غش في ذلك ولا خداع، ولا مجاملة! العدالة الكونية التي لا تهون لديها قيمة ولا تعلق تفاهة!.

وإن ابن أبي طالب لم يسم هذا (اليسير) يسيرا إلا لأنه هكذا كان في أنظار الناس بزمانه وفي آرائهم. ولم يسم هذا (الكثير) كثيرا إلا للعلة ذاتها. وهو يعلم أنهم مخطئون، وأن ما يرونه يسيرا قد لا يكون كذلك. وأن ما يرونه كثيرا قد يخف في ميزان الحق. أما هو،

فقد كان يستشعر قيمة الحياة في قوة وجلاء، ويستشعر إمكاناتها العظيمة بجميع الأحياء،

ويستشعر أن للكون إرادة عادلة في تقييم الحياة حيث كانت، وفي احترام الأحياء حيث هم، فيطلق العبارات الحكيمة التي أشرنا إليها. ويطلق الكثيرات غيرها. حتى إذا غالى المغالون وأنكروا أن لليسير مثل هذه القيمة وهذه الإمكانيات على النمو، توجه إليهم يقول: (وإن أكثر الحق في ما تنكرون!).

ثم إن حقيقة أخرى يقرها علي بكلمته هذه: (... وليس امرؤ وإن صغرت النفوس واقتحمته العيون، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه. هي أن كل إنسان يمكنه أن ينفع

مجتمعه وينتفع به، أية كانت موهبته، وبالغة إمكاناته ما بلغت من الضآلة. وفي هذه النظرة إلى الإنسان الضئيل الحظ من المواهب، توضيح لما في خاطر علي من الإيمان العميق بالعدالة الكونية التي تجعل من قطرات الماء بحرا خضما ومن ذريرات الرمال

صحارى وفلوات، كما تجعل كل قليل داخلا في الكثير، وكل صغير مستندا للكبير. وفيها توضيح لطبيعة الحياة الخيرة تحنو على أبنائها وتجعل كلا منهم في إطار من خيرها

فلا تغبنه ولا تقسو عليه.

وفيها الدليل على هذا الحنان العميق الذي كان علي يغمر به الأحياء فلا يرى فيهم إلا بشرا جديرين بأن يحيوا الحياة كلها، ويفيدوا من خيرها، ويعاونوا ويعانوا. وإنك واجد صورة لهذه النظرة العلوية الواثقة بعدالة الكون وخير الحياة، المؤمنة بإمكانات الإنسان - أيا كان - على أن يكون شيئا كريما، في أدب جان جاك روسو الذي

يدور حول محور من الثقة بعدالة الطبيعة وخير الحياة.

وكأنني بابن أبي طالب قد خص هؤلاء الذين (تصغروهم النفوس وتقتحمهم العيون) بالسهم الأوفر من اهتمامه ساعة خاطب الناس قائلا: (إن الله لم يخلقكم عبثا) أو ساعة

أبدع في وصف ثقته بالطبيعة البشرية الخيرة مواجهها الخلق بهذا الرأي الكريم:
(وخلاكم)

ذم ما لم تشردوا). أي أنكم، جميعا، خيرون ونافعون أصلا وفرعا، ما لم تميلوا عن الحق عامدين.

وتأكيدا لثبوت هذا الجانب من العدالة الكونية في مذهب ابن أبي طالب، وأعني به التسوية التامة في كل حق وواجب بين من قل ومن كثر، ومن صغر ومن كبر، يشير إلى أن مركز هذه العدالة إنما يتساوى لديه الجميع لا فرق فيهم بين إنسان وإنسان.

فصفتهم الإنسانية واحدة، وقضيتهم بميزان الوجود واحدة كذلك، وهم لا يتميزون إلا بما يعملون وما ينفعون. أما من عمل ونفع فإن قانون الوجود نفسه يثبته. وأما من تبطل وبطر وأغتصب، فإن هذا القانون نفسه يعاقبه بما يستحقه. يقول علي: (ولا يلويه شخص عن شخص، ولا يلهيه صوت عن صوت، ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا تولهه رحمة من عقاب!).

وبهذا الصدد نعود بشئ من التفصيل على ما ذكرناه من أن علي ابن أبي طالب كشف النقاب عن العبقورية الوجودية التي تجعل من طبيعة الأشياء ذاتها حاكما أعلى يعطي ويمنع

ويعاقب ويثيب، فإذا الكائنات تحمل، بطبيعة تكوينها، القدرة على أن تقاضي نفسها بنفسها

امتثالا لإرادة الكون العادلة.

يرى علي بن أبي طالب أن الوجود متكافئ ما نقص منه شئ هنا إلا وزاد فيه شئ هناك. وكلا النقص والزيادة متساويان لا زيادة إلا بمقدار النقص ولا نقص إلا بقدر الزيادة. وجدير بالقول أن النظرية القائلة بهذا التكافؤ في أشياء الوجود، إنما هي إحدى النتائج الكبرى التي بلغ إليها نشاط الفكر البشري في زحفه العظيم إلى اكتشاف أسرار

الكون، كما أنها نقطة انطلاق في هذا المجال.

وجدير بالقول أيضا أن عددا من المفكرين الأوائل لم يتمكنوا من الالتفات إلى هذه الحقيقة

وأن عددا أنكروها، وأن هنالك فريقا من هؤلاء المفكرين رأوها وأدركوا كثيرا من تفاصيلها وآمنوا بها ودعوا إليها. وأبناء هذا الفريق يتفاوتون هم أيضا في قوة الملاحظة

وقوة التمثيل ثم في قوة البيان عما ثاهدوه ووثقوا به. فمنهم من لحظ هذا التكافؤ في بعض مظاهر الكائنات فأعلن عن ذلك إعلاناً فيه بعض البيان عن الحقيقة. ومنهم من رآه في

مظاهر الكون الصامت جميعاً ولكنه لم يستشعر له نتائج محسوسة في مجرى الوجود ولم يجد

له خطأ موازيا في مظاهر الكون الحي. ومنهم من لحظه في الطبيعة الصامتة واستشعر له نتائج محسوسة في مجرى الوجود ورأى له خطأ موازيا في الكائنات الحية وأعلن عنه بأجلى

بيان وأوثق كلام. من هذا الفريق علي بن أبي طالب. بل قل إنه في طليعة هذا الفريق من

المفكرين الأوائل لأنه كاد يثبت هذه النظرية على نهج سليم قويم لا يتعارض ولا يتناقض

ولا مهرب لبعضه من بعض. بل قل إنه فعل ذلك وأبدع.

ولعل موقف ابن أبي طالب مما لحظه ورآه من مظاهر التكافؤ في الوجود أجل من مواقف زملائه المفكرين من الناحية العملية. وذلك بما ألح عليه من تأكيد لهذه الحقيقة،

توصلاً إلى ما يترتب عليها من نتائج في حياة الناس أفراداً وجماعة. وهذا الواقع ينسجم كل

الانسجام مع محور الفلسفة العلوية الذي هو: الإنسان.

قلنا إن علياً يرى الوجود متكافئاً ما نقص منه شيء هنا إلا وزاد فيه شيء هناك، وأن هذا النقص وهذه الزيادة يتساويان لا زيادة إلا بمقدار النقص ولا نقص إلا بقدر الزيادة. فيقول أول ما يقول، منبهاً الإنسان إلى هذه الحقيقة عن طريق الصق الأشياء به، أي عن طريق وجوده ذاته:

(ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله!)

وهل من خاطرة في ذهن إنسان يمكنها أن تدحض هذه الحقيقة التي تعرض تعادلية الوجود بأبسط ما يراه المرء من حال الوجود؟ ثم هل من قاعدة رياضية من قواعد الهندسة

والجبر الصق بالحقائق الثابتة، وأدل على الواقع المطلق، وأوجز في تبيان الثابت والمطلق،

من هذه الآية التي يصور بها ابن أبي طالب تعادلية الوجود من خلال الكائن الحي، ومن أيامه؟ وإذا قال لي قائل إن هذه الفكرة معلومة يعرفها الناس كل الناس، فعن أية حقيقة جديدة يكشف ابن أبي طالب في زعمك إذن؟ قلت: إن الكشف عن الحقائق الخافية لا يستلزم السكوت عن الحقائق الظاهرة إذا كانت هذه أصلاً لتلك، أو تلك أصلاً لهذه



(۵۱)

أو إذا كان المنهج العام يستلزم ضبط التفاصيل سواء ما خفي منها وما ظهر. فإن علي بن أبي طالب الذي تتماسك آراؤه في كل مذهب، ثم تتماسك مذاهبه جميعا في وحدة فكرية رائعة، لم يقل هذا القول (المعلوم الذي يعرفه الناس كل الناس)، ولم يقل بمعناه قولا أروع وهو: (نفس المرء خطاه إلى أجله)، إلا ليعود ويبيّن علي ما قاله بناء مفصلا في إثبات نظرية تكافؤ الوجود.

فالذي قال (لا يستقبل يوما من عمره إلا بفراق آخر من أجله) و(نفس المرء خطاه إلى أجله)، إنما قال ذلك ليعود إلى الكشف عن حقيقة أبعد عن أذهان الناس وأخفى عن

ملاحظتهم، ولكنها تجري من القولين السابقين: (ولا ينال الإنسان نعمة إلا بفراق أخرى!).

وأراك استوضحت ما في هذا القول من قوة الملاحظة، والقدرة على الكشف، وصراحة الفكر وجلاء البيان. وضبطا لمضمون هذه العبارة في صور وأشكال تختلف مظهرها وتتحد معنى وجوهرا، يقول علي: (كم من أكلة منعت أكالات) و (من ضييعه الأقرب أتيح له الأبعد) و (رب بعيد هو أقرب من قريب) و (المودة قرابة مستفادة) و (من حمل نفسه ما لا يطيق عجز) و (لن يضيع أجر من أحسن عملا) وما (كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك). فإن في هذه العبارات، وفي عشرات غيرها، إيجازا واضحا لتفاصيل نظرية التكافؤ الوجودي كما يراه علي بن أبي طالب. فهي على اختلاف

موضوعاتها القرابية، تدور في مداها ومأخذها القصي على محور واحد من تعادلية الكون،

فلا نقص هنا إلا وتعده زيادة هناك. والعكس بالعكس.

أدرك ابن أبي طالب هذه الحقيقة الوجودية في قوة وعمق. وعاشها، وأعلن عنها في كل

فصل من حياته أو قول من قوله، سواء أكان ذلك بالأسلوب المباشر أو غير المباشر. وهو لا يدرك هذا الوجه من وجوه العدالة الكونية إلا ليدرك وجهها آخر يعكسه على شكل

خاص، أو قل ينبثق عنه انبثاقا، وهو ما نحن بصدده من الكلام على أن الطبيعة تحمل بذاتها المقياس فتعاقب أو تثيب، وليس بين مظاهر العدالة الكونية ما هو أبرز من هذا المظهر

في الدلالة عليها.

رأى علي أن شيئا واحدا من أشياء هذا الكون لم يوجد عبثا، بل إن لوجوده غاية



(०२)

وهدفنا. ورأى أن لكل من الكائنات وظيفة يقوم بها، وأن على كل جارحة من جوارح الإنسان فريضة يحتج بها الكون العادل عليه، ويسأله عنها، ويحاسبه عليها. وبناء على هذا الواقع، تكون أشياء الوجود متساوية بحكم وجودها. أما الصغيرة والكبيرة فشببهتان

بهذا المقياس. يقول علي: (ويحاسبك على الصغيرة قبل الكبيرة) وإنما قال ذلك لأن

الأكثرية من الناس لا يبهون ل (الصغيرة)، فإذا به يلفت أنظارهم إلى هذه الصغيرة بتقديمها

على الكبيرة في ما تستلزم من عقاب أو ثواب، لكي يطمئن إلى حدوث عملية التسوية بينهما

في الأذهان والقلوب.

أما إذا احتج الكون على الإنسان بما فرضه على جوارحه، وسأله عنه، وحاسبه على الصغيرة والكبيرة، وجازاه بما عمل خيرا كان أو شرا، فليس من الضروري في ملاحظة علي

وفي نهجه أن تتم عملية الاحتجاج والمحاسبة والمجازاة هذه خارج نطاق الإنسان نفسه، وإن

هذه العملية المركبة، الواحدة على ما فيها من تركيب، لتتم أبدا - كما يلحظ علي - في حدود الكائن أيا كان. وهكذا تتم في ما يتعلق بالإنسان وهو أحد الكائنات. يقول علي:

(إن عليكم رقدا من أنفسكم وعيونا من جوارحكم). والرصد الرقيب. وهذا الرقيب لا يألو جهدا في أن يرى ويسجل ويعاقب أو يثيب.

وفي لحظات فذة من تألق العقل المكتشف والفكر النافذ، تبدو لعيني ابن أبي طالب ألوان

ساطعة من هذا الوجه من وجوه العدالة الكونية، لا يسعك إزاءها إلا أن تعجب بهذا العقل وهذا الفكر.

أفلا ينطق ابن أبي طالب بلسان علماء العصر الحديث كما ينطق بلسان هذه العدالة نفسها ساعة يقرر هذه الحقيقة: (من أساء خلقه عذب نفسه!) ثم، ألا ينطق

بهذين

اللسانين معا إذ يقول: (يكاد المريب يقول: (خذوني) وإذ يقول أيضا: (فأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقك رغب فإنك تعاض بما ابتذلت من نفسك!).

ومثل هذه الآيات كثير كثير. ومنها هذه الروائع: (موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل) و (لا مروءة لكذوب ولا راحة مع حسد، ولا سؤدد مع انتقام، ولا

صواب

مع ترك المشورة). و (إذا كانت في رجل خلة رائقة فانتظروا أحواتها!).

وهكذا أدرك علي بن أبي طالب أن الكون واحد، عادل، ثابت في وحدته وعدله،
جاعل في طبيعة الكائنات ذاتها قوة الحساب والقدرة على العقاب والثواب. وهكذا عبر
عما أدركه أروع تعبير.
بيد أن وجوها غير هذه من وجوه العدالة الكونية تفحصها علي وضبط أشكالها
وألوانها. فما هي هذه الوجوه؟

الحنان العميق
وأدرك علي أن منطق الحنان أرفع من
منطق القانون، وأن عطف الإنسان على
الإنسان وسائر الكائنات، إنما هو حجة
الحياة على الموت، والوجود على العدم!
ولم يكن موقف علي من المرأة ذلك
الموقف الذي صوروه!

إذا كان من عدالة الكون وتكافؤ الوجود أن تلتقي علي صعيد واحد بوارح الصيف
ومعصرات الشتاء، وأن تفنى في حقيقة واحدة السوافي والأعاصير والنسيمات اللينيات،
وأن تحمل الطبيعة بذاتها، بكل مظهر من مظاهرها قانون الثواب والعقاب، فمن هذه
العدالة أيضا ومن هذا التكافؤ أن تتعاطى قوى الطبيعة وتتداخل سواء في ذلك عناصر
الجماد

وعناصر الحياة. وسواء في ذلك ما انبثق عن هذه أو انسلخ عن تلك.
ولما كانت صفات الإنسان وأخلاقه وميوله وأحاسيسه منبثقة عن عناصر الحياة التي
تتحد

فتؤلف ما نسميه شخصية الإنسان، فهي متعاطية متداخلة، تثبت ذلك الملاحظة الطويلة
والموازنة الدقيقة ثم قواعد العلم الحديث الذي لاحظ ووازن وأرسي مكتشفاته على
أسس وأركان.

وقد مر معنا أن الإنسان في مذهب علي بن أبي طالب هو الصورة المثلى للكون الأمثل.
ومما يعزى إليه هذا القول يخاطب به الإنسان:
وتحسب أنك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر

فمن الطبيعي في مثل هذه الحال أن يلح علي في طلب كل ما يتعلق بالإنسان مما يطاله زمانه وإمكانات عصره. ومن الطبيعي كذلك أن يلح في الكشف عما في هذا (الجرم الذي

انطوى فيه العالم الأكبر (من مظاهر العدالة الكونية وتكافؤ الوجود ضمن الإطار الذي دارت آراؤه فيه.

أحس علي إحساسا مباشرا عميقا أن بين الكائنات روابط لا تزول إلا بزوال هذه الكائنات. وأن كل ما ينقص هذه الروابط ينقص من معنى الوجود ذاته. وإذا كان الإنسان أحد هذه الكائنات، فإنه مرتبط بها ارتباط وجود. وإذا كان ذلك - وهو كائن

فإن ارتباط الكائن بشبيهه أجدر وأولى. أما إذا كان هذا الكائن من الأحياء، فإن ما يشده إلى الأحياء من جنسه أثبت وأقوى. وأما الإنسان - رأس الكائنات الحية - فإن ارتباطه بأخيه الإنسان هو الضرورة الأولى لوجوده فردا وجماعة. وحين يقرر علي أن المجتمع الصالح هو المجتمع الذي تسوده العدالة الاجتماعية بأوسع

معانيها وأشرف أشكالها. إنما يسن قانونا أو ما هو من باب القانون. ولكن هذا القانون لا ينجلي في ذهنه ولا يصبح ضرورة. إلا لأنه انبثاق طبيعي عما أسمى روح العدالة الكونية

الشاملة. التي تفرض وجود هذا القانون. لذلك نرى ابن أبي طالب ملحا شديد الإلحاح على النظر في ما وراء القوانين، وعلى رعايتها بما هو أسمى منها: بالحنان الإنساني. وما يكون الحنان إلا هذا النزوع الروحي والمادي العميق إلى الاكتمال والسمو. فهو بذلك ضرورة خلقية لأنه ضرورة وجودية.

الصفحة الأولى التي ينشرها علي من صفحات الحنان تبدأ بأن يذكر الناس بأنهم جميعا إخوة فينعتهم ب (إخواني) نعتا صريحا وهو أمير عليهم. ثم يردف ذلك بتذكير الولاة بأنهم

أخوان الناس جميع الناس، وبأن هذا الإخاء يستلزم العطف بالضرورة، قائلا إلى أمراءه على الجيوش: (فإن حقا على الوالي أن لا يغيره فضل ناله، ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوا من عباده وعطفا على إخوانه). وما يذكره لنفسه وللولاة بأنهم والناس إخوان بالمودة والحنان، يعود فيقرره بحكمة شاملة يتجه بها

إلى البشر جميعا دون تفرقة أو تمييز، قائلا: وإنما أنتم إخوان ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر). وهو بذلك يضع خبث السريرة وسوء الضمير في طرف،

وحنان القلب ومودة النفس في طرف آخر. ولما كان من الحق الوجودي للإنسان أن



(၀၆)

ينعم بحنان الإنسان، فإن الطبيعة التي تحمل بذاتها القيم والمقاييس لا بد لها من التعويض على

صالح ضيعة الجيران والأقربون والأهل فما لفوه برداء من حنان، بعطف وحنان كثيرين يأتيانه من الأبعد. فيقول علي: (من ضيعة الأقرب أتيح له الأبعد) وهو في سبيل رعاية هذه الأخوة القائمة بالحنان الإنساني، لا يقبل حتى بالهينات الهيئات

لأن فيها انحرافا مبدئيا عن كرم الحنان: (أما بعد فلولا هنات كن فيك لكنت المقدم في هذا الأمر).

وإذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يحارب المتآمرين به، فإنه لا يفعل إلا بعد أن يراعي كل جوانب الحنان في نفسه وقلبه، وبعد أن يستشير كل روابط الإخاء البشري في نفوس مقاتليه وقلوبهم. وهو إن فعل في خاتمة الأمر فإنما يفعل

مكرها لا مختارا حزينا باكيا لا فرحا ضاحكا، فإذا شعوره بالنصر بعد القتال ألم وأوجع من شعور مناوئيه بالهزيمة!

وإذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يترك المعتدين عليه، بعد موته، بين يدي أنصاره وبنيه يقاتلونهم ويقتصون منهم لضلال مشوا به وإليه، فإن الرأفة بالإنسان وهي لديه وراء كل قانون، تحمله حملا على أن يخاطب أنصاره وبنيه بهذا

القول العظيم: (لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه).

وهو بعامل هذا الحنان العميق يربط سعادة المرء بسعادة جاره. أي بسعادة الإنسانية كلها، لأن لجار المرء جيرانا، وما يجوز عليه بالنسبة له يجوز عليهم بالنسبة لسائر الناس.

ومن سعادته أيضا أن يطغى عليه هذا الحنان فإذا بأبناء الآخرين يحظون منه بالعطف الذي

يحظى به أبنائه: (أدب اليتيم بما تؤدب به ولدك). وأن يستشعر الجميع روح العدالة الأساسية التي تفوق القوانين الوضعية قيمة وجمالا لأنها تحمل الدفء الإنساني وتصل الخلق بمنطق القلب لا بمنطق الخضوع لقانون: (ليتأس صغيركم بكبيركم، وليرأف

كبيركم بصغيركم).

وإذا كان العجز عن إثبات المكرمات نقصا، فإن منطق الحنان على لسان علي يجعل العاجز

عن اكتساب أخوة الناس أكثرهم نقصا: (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان).
ويضيف علي إلى هذا العجز عجزا آخر هو الميل إلى المرء والخصومة قائلًا: (إياكم
والمرء

والخصومة) بل إن الأولى هو لين الكلام لما فيه من شد الأواصر بين القلب، منبع
الحنان

والقلب: (وإن من الكرم لين الكلام). وليس بين نزعات القلب ما هو أدعى إلى الراحة
من شعور المرء بأن له في جميع الناس إخوانا أحياء، فإذا تألم ابن أبي طالب من سيئات
زمانه، جعل الخبز وهو آلة البقاء، والصدق وهو ركيزة البقاء، ومؤاخاة الناس في
منزلة واحدة، فقال في ناس زمانه: (يوشك أن يفقد الناس ثلاثًا: درهما حلالًا،
ولسانا صادقًا، وأخا يستراح إليه).

وإذا كانت الغربة قساوة كبرى لأنها تستدعي الوحدة، فإن أشدها يكون ساعة
يفقد الإنسان إخوانه وأحباءه لأنه يفقد إذاً ذلك قلبًا يعز بعطفها ويحيا بحنانها:
(والغريب

من لم يكن له حبيب) و (فقد الأحبة غربة).
ولا بد لنا أن نشير إلى موقف ابن أبي طالب من المرأة على هذا الصعيد. فالمرأة نصف
الإنسان، فهل يخلو هذا النصف من العطف على نصفه الآخر؟ وهل النصف الآخر
مدعو

إلى أن يجور على مقاييس العدالة الكونية القاضية بحنان الإنسان على الإنسان؟
لقد أول الكثير بعض أقوال علي في المرأة تأويلا شائوا به الطرافة والترفيه فوق ما
شائوا به أن يبرزوا موقف علي منها. فألحوا على كلمات له قالها في ظروف كان أبرز
ما

فيها عداء امرأة معينة له وهو لم يسئ ولم يأمر إلا بمعروف. وفاتهم أن مثل هذه
الأقوال

الخاضعة لظرف محدود بذاته، والرامية إلى إيضاح الأسباب في صراع بين عقليتين
مختلفتين كل الاختلاف، إنما قال في بعض الرجال أشد منها وأقسى، وهو بذلك لا
يعني

الرجال قاطبة وفي كل حالاتهم. كما أنه، حين أطلق تلك الأقوال في المرأة، لم يكن
ليعني

النساء قاطبة وفي كل حالاتهن. فإن مسببي الويلات التي ألمت به وبالخير عن طريقه،
تعرضوا لمثل هذه الأقوال سواء أكانوا رجالًا أو نسوة لهن قوة الرجال ونفوذهم. وهو
إن هاجم هؤلاء وهؤلاء من نسوة ورجال، فإنما كان يهاجم فيهم مواقف معينة وقفوها
من الحق والعدل وأصحابهما. وفي ذلك ما ينفي الادعاء بالإساءة إلى المرأة من قبل
علي.

وإني لأسأل من يعينهم الأمر أن يوافقوني بكلمة واحدة يسئ بها علي إلى المرأة ولم تكن

موجهة إلى إنسان معين في ظرف معين، أو من وحي هذا الإنسان في هذا الظرف! لقد هاجم المرأة عندما كانت سببا في الفتنة، وهاجم الرجل في مثل هذه الحال. فهو بذلك

يهاجم الفتنة وحسب!

أما موقف علي من المرأة كإنسان، فهو موقفه من الرجال كإنسان، لا فرق في ذلك ولا تمييز. أوليس في حزنه العميق على زوجه فاطمة وقد توفيت، دليل على إحساسه بقيمة

المرأة كإنسان له كل حقوق الإنسان وعليه كل واجباته، وفي أساس هذه الحقوق والواجبات أن ينعم بالحنان الإنساني وينعم به الآخريين؟ أو لم يكن الناس في الجاهلية وبعد الجاهلية يتفاءلون بمولد الذكر ويفرحون ويتشائمون

بمولد الأنثى ويحزنون!

أولم يكن موقف الفرزدق تعبيرا عن نظرة عصره إلى المرأة، وهو عصر متصل بزمن ابن أبي طالب، ساعة ماتت زوجته، وكان يحبها على ما زعموا، فقال فيها هذا القول العجيب:

وأهون مفقود، إذا الموت ناله، على المرء من أصحابه من تقنعا
أي أن أهون فقيده على المرء من أصحابه ومعارفه فقيده يلبس القناع، ويريد به المرأة.
فالمرأة في قلبه وعلى لسانه لا تستحق أن تبكي، ولا أن يحزن عليها. لماذا؟ لا لشيء إلا لأنها امرأة!

وعلي، ألم يكن من أبناء ذلك الزمان؟ ولكنه كان أنفذهم تفكيراً وأشرفهم نظراً وأعمقهم إحساساً، فقال في جملة ما قال بهذا الشأن متلوماً على أصحاب تلك العقلية الرعناء:

(وإن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث الخ). إذن، فالذكور والإناث بمنزلة واحدة عند علي تجمعهم صفة الإنسان وحسب.

أضف إلى ذلك أن عليا الذي يعطف على أناس عموماً، وعلى الضعفاء منهم خصوصاً، يفرض على الخلق الكريم أن يكون أشد حناناً على المرأة مستضعفة إن لم تكن ضعيفة، فيقول: (وانصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم المريب وأحسنوا إلى نساءكم). ويقول في مكان آخر: (أمركم بالنهي عن المنكر والإحسان إلى نساءكم).

ويتابع ابن أبي طالب حلقات هذا المسلك المتماسك في دعوته إلى أن يلتف الناس جميعاً، ثم الناس وسائر الكائنات، بدفء الحنان، فيقول في العلم - وقد عرفنا قيمة العلم في

مذهبه - : (رأس العلم الرفق). وهو لا يرى في كثرة الذنوب ما يهول أكثر من أنها مدعاة

إلى القسوة بحكم تعودها، ومن ثم فهي سبب في نفور بارد يحل في القلوب محل حنان

دافئ فيقول: (ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب!) وإذا لم تكن من أهل الذنوب فأنت من أهل الحنان ومن حقدك أن تبذل - بهذا

الحنان - كل ما تملك لنصرة أخيك الإنسان: (فإن كنت من أخيك على ثقة فابذل له مالك ويدك، وأعنه، وأظهر له الحسن).

وأخيراً يطلق علي مجموعة من الأقوال تدور في مدار الدعوة إلى تفاني الناس في الناس عطفاً وحناناً. وهي تعتبر بحق من أسمى ما يملكه الإنسان من تراث خلقي عظيم. ومنها هذه

الروائع: (صل من قطعك وأعط من حرمك. أحسن إلى جميع الناس كما تحب أن يحسن

إليك أحسن إلى من أساء إليك. عودوا بالفضل على من حرمك الخ..). وإنجازاً لهذه الدعوة الكريمة يشرك ابن أبي طالب البهائم والبقاع والناس في حق لها مشترك في الحنان فيقول: (اتقوا الله في عباده وبلادته فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم!)

وهكذا، فإن عطف الإنسان على الإنسان وسائر الكائنات إنما هو حجة الحياة على الموت، بل هو إرادة من إرادة الوجود العادل!

صدق الحياة

وهذا الصدق عهد منك وعليك، لأنه

روح الجمال والحق، وإرادة الحياة

القادرة الغلابة!

لعل أبرز مظاهر العدالة الكونية في عالم الجماد وعالم الحياة، وفي كل ما يتصل بطبيعة الوجود وخصائص الموجودات، هو الصدق الخالص المطلق. فعلى الصدق مدار الأرض والفلك والليل والنهار. وبالصدق وحده تتلاحق الفصول الأربعة ويسقط المطر وتسقط شمس. وبه كذلك تفي الأرض بوعداتها حين تنبت ما عليها كلاً في حينه لا تقديم

ولا تأخير. وبه تقوم نواميس الطبيعة وقوانين الحياة. والريح لا تجري إلا صادقة، والدماء

لا تطوف العروق إلا بصدق، والأحياء لا يولدون إلا بقانون صادق أمين.

هذا الصدق الخالص المطلق الذي تدور عليه قاعدة البقاء، هو ينبوع الأول والأكبر الذي تجري منه عدالة الكون وإليه تعود!

ولما كان علي بن أبي طالب شديد الملاحظة لصدق الوجود، شديد التفاعل معه، فقد جعل من همه الأول في الناس تهذيب الناس استناداً إلى ما يعقل ويحس ويرى. والتهذيب في معناه الصحيح ومدلوله البعيد ليس إلا الاحساس العميق بقيمة الحياة وشخصية

الوجود. ولما كان هذا المعنى هو المعنى الأوحى للتهذيب العظيم، كان الصدق مع الذات

ومع كل موجود مادي أو معنوي، هو المحور الذي يدور عليه التهذيب، كما رأينا محور العدالة الكونية. وبذلك ينتفي من التهذيب السليم كثير من القواعد التي تواطأ عليها

البشر دونما نظر في نواميس الوجود الكبرى، وهم يحسبون أنها قواعد تهذيبية لمجرد اتفاهم عليها. وبذلك أيضا ينتفي من التهذيب السليم كل ما يخالف روح الحق وروح الخير وروح الجمال. والتهذيب على غير أصوله الكبرى تواطؤ سطحي على الكذب القبيح. وهو على أصوله البعيدة إحساس عميق بالصدق الجميل، مما يجعله اندماجا خالصا بثورية الحياة الجارية الفاتحة.

لذلك كان مدار التهذيب عند ابن أبي طالب، حماية الإنسان من الكذب، أو قلة حمايته وهو حي من برودة الموت! وحماية الإنسان من الكذب تستوجب أول الأمر تعظيم الصدق نصا مباشرا في كل حال. وإبراز ضرورة حياتية لا مفر منها لكل حي، وتوجيه الناس نحوه أفرادا يخلون إلى أنفسهم أو يعيشون جماعات. وفي هذا الباب يبرز علي بن أبي طالب عملاقا يرى ما لا

يراه الآخرون، ويشير إلى ما يجهلون، ويعمل ما لا يستطيعونه الآن ويريدهم أن يستطيعوه.

يقول علي: (إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحدا). وتهزيع الشيء تكسيره. وتصريفه قلبه من حال إلى حال. يريد بذلك تذكير الصادق بالخطر الذي

يتعرض له صدقه إن هو كذب ولو مرة واحدة. فالصادق إذا كذب مرة انكسر صدقه كما ينكسر أي شيء وقع على الأرض مرة واحدة. وكذلك النفاق والتلون فهما لوانان من

ألوان الكذب. ويقول أيضا: (وكونوا قوما صادقين. واعملوا في غير رياء. وأعز الصادق المحق وأذل الكاذب المبطل. وصدقوا الحديث وأدوا الأمانة وأوفوا بالعهد. من طلب عزا بباطل أورثه الله ذلا بحق. إن كنت صادقا كافيناك وإن كنت كاذبا عاقبناك).

إن من عدم الصدق في منطقته فقد فجع بأكرم أخلاقه. ما السيف الصارم في كف الشجاع

بأعز له من الصدق). وما هذه الآيات في الصدق إلا نماذج من مئات آخر يأت يؤلف ابن

أبي طالب بها أساس دستوره الأخلاقي العظيم. ثم إليك هذه الآية التي يكثر في نسجها نصيب العقل النافذ الواعي. يقول: (الكذب يهدي إلى الفجور). ولسنا في حاجة إلى الإسهاب في إظهار ما تخفي هذه الكلمة من

حقيقة

تجر وراءها سلسلة لا تنتهي من الحقائق. كما أننا لسنا في حاجة إلى الإسهاب في

تصوير

ما تشير إليه من حقيقة نفسية لا تزيدها الأيام إلا رسوخا. ومثل هذه الآية آيات، منها:
(لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له!) أما المعنى

الذي يشير إليه الشق الأول من هذه الآية العلوية، فقد كان موضوع جدل كثير بين فلاسفة الأخلاق ولا سيما الأوربيين منهم. والواقع أن هؤلاء أجمعوا على أن الصدق حياة

والكذب موت. غير أنهم اختلفوا في هل يجوز الكذب في حالة الضرورة أم لا؟ فمنهم الموافق ومنهم المخالف. ولكل من الفريقين حجته. أما علي بن أبي طالب، فيقف من هذا الموضوع الذي تثيره عبارته، موقفا حاسما ينسجم

مع مذهبه العظيم في الأخلاق، هذا المذهب الذي نعود فنذكر القارئ بأنه منثق عما أحسه علي ووعاه من عدالة الكون الشاملة، فيقول غير متردد: (علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك!

ومن الواضح أن ابن أبي طالب لا يرى أن في الكذب ما ينفع وأن في الصدق ما قد يضر، فيتحدث إلى الناس في نطاق من مدى تصورهم ليلبغ كلامه منهم مبلغا ذكيا. وتأكيدا لذلك يقول: (عليك بالصدق في جميع أمورك). ويقول أيضا: (جانبوا الكذب فإن الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شفا مهواة وهلكة!) أما المعنى الذي يذكره الشق الثاني من العبارة: (ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له) فالتفاته عظيمة إلى حقيقة تربوية تقررها الحياة نفسها، كما تقررها الأصول النفسية التي ينشأ عليها المرء ويتدرج. ويكفيك منها هذه الإشارة إلى أن الطفل يتربى بالمثل لا بالنصيحة.

وهذا الرأي هو محور فلسفة جان جاك روسو التربوية! والصدق مع الحياة يستلزم البساطة وينفر من التعقيد، لأن كل حقيقة بسيطة بمقدار ما الشمس ساطعة والليل بهيم. ودلالة على هذه البساطة الدافئة لأنها انبثاق حي وعفوي عن

الصدق، نقول إن ابن أبي طالب كره التكبر لأنه ليس طبعا صادقا بل الكبر هو الصدق، فإذا بالمتكبر في رأيه شخص يتعالى على جبلته ذاتها. يقول: (لا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه). وهو في الوقت نفسه يكره التواضع إذا كان مقصودا فإنه عند ذاك لا يكون طبعا

صادقا بل الشعور بأن الإنسان مساو لكل إنسان في كرامته هو الصدق. لذلك يخاطب من

يقوده تواضعه إلى أن يذل نفسه، قائلا له: (إياك أن تتذلل للناس). ثم يردف ذلك بقول أروع: (ولا تصحبن في سفر من لا يرى لك من الفضل عليه مثل ما ترى له من الفضل عليك!)

وإني لا أعرف في مبادئ المحافظين على كرامة الإنسان كإنسان لا يتكبر ولا يتواضع بل يكون صادقا وحسب، ما يفوق هذه الكلمة لابن أبي طالب أو ما يساويها قيمة: (الإنسان مرآة الإنسان!)

ومن أقواله الدالة على ضرورة أخذ الحياة أخذا بسيطا: (ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغني. الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد. لا تقل ما لا تعلم. لا تعمل الخير رياء ولا تتركه حياء. يا ابن آدم، ما كسبت فوق

قوتك فأنت فيه خازن لغيرك. لا ينصت للخير ليفخر به، ولا يتكلم ليتجبر علي من سواه. من حمل نفسه ما لا يطيق عجز. لا خير في معين مهين). وكأني بابن أبي طالب لا يترك جانبا مما وعاه فكره وشعوره من أمور الحياة والإنسان إلا أطلق فيه رائعة تختصر

دستورا كاملا. وهذا ما فعله ساعة شاء أن يوجه الناس إلى أخذ الحياة أخذا صادقا بسيطا

فقال هذه الكلمة الدافئة بعفوية الحياة: (إذا طرقت إخوانك فلا تدخر عنهم ما في البيت،

ولا تتكلف لهم ما وراء الباب!).

وإذ يفرغ علي من حديثه الكثير الدائر حول ضرورة الصدق مع الحياة بصورة مباشرة، ثم حول البساطة التي لا يكون صدق بدونها ولا تكون بغير صدق، يواصل طريقه في مفاهيم التهذيب التي تتلازم في مذهبه وتترابط حتى لكأنها صورة عن كل موجودات الكون، والتي يظل الصدق مدارها الأول وإن تناولت وجوها أخرى من وجوه الأخلاق. فيوصي بأن يتغافل المرء عن زلات غيره فإن في ذلك رحمة من المتغافل وتهديبا

للمسئ بالسيرة والمثل أبلغ من تهذيبه بالنصيحة أو بالبغضاء، يقول، (من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم) كما يوصي بالحلم والأناة لأنهما نتيجة لعلو الهمة ثم مدرجة لكرم النفس:، (الحلم والأناة توأمان ينتجهما علو الهمة). ويكره الغيبة لأنها مذهب من النفاق والإساءة والشر جميعا: (اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار). والخديعة مثل الغيبة وكتاهما من خبث السرائر: (إياك والخديعة فإنها من خلق اللئام). وكما رأى أن كذبة واحدة لا تجوز لأن الصدق ينكسر بها، يرى أن كل ذنب مهما كان في زعم صاحبه

خفيفا قليل الشأن هو شديد لأنه ذنب، بل إنه أشد وقعا على كرامة الإنسان إذا

استخف به صاحبه، من ذنب عظيم عاد مقترفه إلى الرجوع عنه في الحال: (أشد الذنوب

ما استخف به صاحبه). وينهاك علي عن التسرع في القول والعمل لأنه مدعاة إلى السقوط

وعلى الإنسان المهذب ألا يبيح نفسه لأية سقطه: (أنهاك عن التسرع في القول والعمل).

وهو يريدك أن تعتذر لنفسك من كل ذنب أذنبت إصلاحاً لخلقك، ولكنه ينبهك تنبيهاً عبقرى الملاحظة والبيان إلى أن الإنسان لا يعتذر من خير، فعليه إذن ألا يفعل ما يضطره إلى

الاعتذار: (إياك وما تعتذر منه فإنه لا يعتذر من خير). ومنعا للاشتغال بعيوب الناس وإغفال عيوب النفس، وفي ذلك ما يدعو إلى سوء الخلق والمسلك سلبياً وإيجاباً، يقول علي:

(أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله) و (من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره). وإذا أتى القبيح من مصدر عليك أن تنكره أولاً، فإن لم تستطع ذلك تحتم عليك ألا تستحسنه لئلا تصبح شريكاً فيه: (من استحسن القبيح كان شريكاً فيه) وإذا كان التعاطف بين الناس ضرورة أخلاقية لأنه ضرورة وجودية على ما مر معنا في الفصل السابق،

فإن منطق العقل والقلب يأمر بأن يكون عطفك على من أنطقك وأحسن إليك أكثر وأوسع.

وفي ذلك يقول علي: (لا تجعلن ذرب لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سدك). ثم يقول: (وليس جزاء من عظم شأنك أن تضع من قدره، ولا جزاء من سرك أن تسوءه).

ويهاجم الحرص والكبرياء والحسد لأنها سبيل إلى الانحدار الخلقي: (الحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحم في الذنوب).

وإذا كان الأخلاقيون القدماء يذمون البخل فلأنه

في نظرهم صفة مذمومة لذاتها. أما عند ابن أبي طالب الذي يرصد الأخلاق بنظرة أشمل

وفكر أعمق، فالبخل ليس مذموماً لذاته قدر ما هو مذموم لجمعه العيوب كلها، ولدفعه صاحبه إلى كل سوءة في الخلق والمسلك. فالبخل منافق، معتد، مغتاب، حاسد ذليل، مزور، جشع، أناني، غير عادل. يقول علي: (البخل جامع لمساوئ العيوب). ويطول بنا الحديث ويتسع إذا نحن شئنا أن نورد تفاصيل مذهب ابن أبي طالب في الأخلاق وتهذيب النفس، فهي كثيرة لم تترك حركة من حركات الإنسان إلا صورتها ووجهتها. وإذا قلت إن مثل هذا العمل طويل واسع شاق فإني أعني ما أقول. وما



(٦٥)

على القارئ إلا أن يطلع على الروائع التي أخذناها من أدب ابن أبي طالب في هذا الكتاب

حتى يثق بأن المجلدات قد تضيق عن دراسة مذهبه في الأخلاق وتهذيب النفس، وعمما تستوجهه هذه المختارات من شرح وتعليق.

ويكفي أن نشير إلى أن هذه الروائع العلوية

من أشرف ما في تراث الإنسان، ومن أعظمه اتساعا عمقا.

على أنه لا بد لنا الآن من التلميح إلى آية الآيات في تهذيب العظيم بوصفه إحساسا عميقا

بقيمة الحياة وكرامة النفس وكمال الوجود. وإن نفرا قليلا من المتفوقين كبوذا

والمسيح

وبتهوفن وأشباههم هم الذين أدركوا أن آية التهذيب إنما تكون في الدرجة الأولى بين

الإنسان ونفسه. ولا تكون بين الإنسان وما هو خارج عنه إلا انبثاقا بديها طبيعيا عن

الحالة الأولى. وقد أدرك ابن أبي طالب هذه الحقيقة إدراكا قويا واضحا لا غموض فيه

ولا إيهام. وعبر عنها تعبيرا جامعاً. يقول علي في ضرورة احترام الإنسان نفسه وأعماله

دون أن يكون عليه رقيب: (اتقوا المعاصي في الخلوات). ويقول في المعنى ذاته: (إياك

وكل عمل في السر يستحي منه في العلانية. وإياك وكل عمل إذا ذكر لصاحبه أنكروه).

وإليك ما يقوله في الرابطة بين السر والعلانية، أو بين ما أسميناه (آية التهذيب) وما

أسميناه (انبثاقا) عنها: (من أصلح سريره أصلح الله علانيته).

ومن بدائع حكيم الصين كنفوشيوس في تهذيب النفس هذه الكلمة، (كل على

مائدتك كأنك تأكل على مائدة ملك). وجلي أنه يريد منك أن تحترم نفسك احتراماً

مطلقاً

غير مرهون بظرف أو مناسبة، حتى ليجدر بك أن تتصرف حين تخلو إلى نفسك كما

تتصرف

وأنت بين يدي ملك. ومثل هذا المعنى يقوله علي بن أبي طالب على هيئة جديدة:

(ليتزبن)

أحدكم لأخيه كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة!).

وهو يريدك في كل حال أن تعظ أخاك لتعيه في الانتقال من حسن إلى أحسن في

الخلق والذوق والمسك. ولكن روح التهذيب الأصيل يأبى عليك أن تجرحه أو تؤذيه

بنصحه علناً، بل إن هذا الروح يقضي عليك أن تكون لنا رفيقاً فلا تنصح إلا خفية

ولا تعظ إلا سرا. يقول علي: (من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد

شانه).

وأية كانت حالك فعليك أن تصدق مع نفسك والحياة والناس. فبهذا الصديق تحيا
وبغيره
تهلك. وبه تحفظ سلامة روحك وقلبك وجسدك. وبغيره تفقدها. وبالصدق تحب
وتحب ويوثق بك، وبغيره تجلب لنفسك المقت والكراهية والسيئات جميعا وير ذلك
الناس تافها حقيرا. وهذا الصديق عهد منك وعليك لأنه إرادة الحياة القادرة الغلابة وهي
إرادة تقتضي عليك بأن تنظر في عهدك كل يوم. وابن أبي طالب يقول: (على كل
إنسان أن ينظر كل يوم في عهده!)

خير الوجود وثورية الحياة
لشد ما رأيناه يجعل ثورية الحياة كلا
من خير الوجود، وخير الوجود كلا
من ثورية الحياة!
وقالت الثورة: أنا الهادمة البانية!

وليس من حق الوجود العادل إلا أن يكون خيرا كريما. وليس من طبيعته إلا
العطاء وهو لا يأخذ ما يعطيه إلا ليعود إلى بذله طيبا جديدا. وخير الوجود كيان من
كيانه وجوهره. وعهد علي به هو هذا العهد. وإحساسه بخيره هو إحساسه
بعده لا يقل ولا يزيد. وعلى ذلك تحدث عن هذا الخير فأكثر الحديث وقد روينا من
أقواله من خير الوجود شيئا غير قليل. ولعل ما روينا من تلك الروائع الصادقة نستطيع
تلخيصه الآن بكلمة قالها وكأنه يوجز بها مذهبه المؤمن بخير الوجود: (وليس الله بما
سئل بأجود منه بما لم يسأل). فإذا عرفنا أن لفظة (الله) تعني في أقصى ما تعينه عند
القدماء

من أصحاب الأصالة الذهنية والروحية: مركز الوجود والروابط الكونية، عرفنا أي
خير شامل عميم هو خير الوجود الذي يمنحك ما تسأل ضمن شروط، ثم يعطيك فوق
ما

تسأل، ثم يزيد!
ولما كان الإنسان الذي يحسب أنه جرم صغير، ممثلا لهذا العالم الأكبر على ما يقول
ابن أبي طالب، فلا بد أن يكون هو أيضا صورة عن الوجود بخيره كما هو صورة عنه
بعده. فإذا أعطاك الوجود فوق ما تسأله من خيره، يكون قد بدأك لحاجة في طبيعته
إلى
أن يكون خيرا. وإذا كنت صورة عنه، فأنت أحوج إلى اصطناع الخير من أهل الحاجة

إليه. وهذا ما يؤكد علي بقوله هذا: (أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة

إليه!) وهذا ما يؤكد أيضا في عبارة يرجع إليها كلما تحدث عن اصطناع الخير بين الناس: (والفضل في ذلك للبادئ)

وإذا نتقل إلى النظر في الخير ومعناه على صعيد العلاقات بين الناس، أمكننا أن نجزي آراء ابن أبي طالب في المجاري التالية:

أولا، الخير بين الناس يكمن في أن يتعاونوا ويتساندوا، وأن يعمل واحد منهم من أجل نفسه والآخرين سواء بسواء، وألا يكون في هذا العمل رياء من جانب هذا ولا إكراه

من جانب ذاك لكي (يعمل في الرغبة لا في الرهبة) على حد ما يقول علي، ثم أن يضحى

بالقليل والكثير توفيراً لراحة الآخرين واطمئنان الخلق بعضهم إلى بعض، وأن تأتي هذه التضحية بمبادرة لا بعد سؤال ولا بعد قسر وإجبار. وكل ما من شأنه أن ينفع ويفيد، سواء أكان ذلك على صعيد مادي أو روحي، كان خيرا.

ثانيا، يرى علي أن الخير لا يأتي إلا عملاً أولاً، ثم قولاً، لأن الإنسان يجب أن يكون واحداً كالوجود الواحد، وأن يساند بعضه بعضاً وفاء لهذه القاعدة: فإن قال فعل،

وإن فعل قال. ومن روائع ابن أبي طالب كلمة قالها في رجل يرجو الله في أمر ولا يعمل

من أجل هذا الرجاء: (يدعي بزعمه أنه يرجو الله! كذب والعظيم! ما باله لا يتبين رجاءه في عمله، فكل من رجا عرف رجاءه في عمله!) أما إذا عملت خيراً، فمن حقاك عند ذاك أن تقول خيراً: (قل خيراً وافعل خيراً!) ثالثاً،

يفسح علي في المجال أمام قوى الخير لأن تنطلق أبعد ما يكون الانطلاق، وذلك بأن يجعل قبول التوبة عن الشر قاعدة يعمل بها. فإن أثم المرء مسيئاً إلى الآخرين، فإن في التوبة باباً يلج منه جديد إلى عالم الخير إذا شاء. يقول علي: (إقبل عذر من اعتذر إليك، وأخر الشر ما استطعت). ويعرف التاريخ مقدار الإساءة التي لحقت بعلي عن طريق أبي موسى الأشعري، ويعرف كذلك أن علياً لا ينزع إلا عن مذهبه أية كانت الظروف والصعوبات، لذلك نراه يبعث إلى أبي موسى قائلاً: (أما بعد، فإنك امرؤ ضللك الهوى، واستدرجك الغرور، فاستقل الله يقلك عثرتك، فإن من استقل الله أقاله!

رابعاً، يؤمن علي بأن قوى الخير في الإنسان تتداعى ويشد بعضها بعضاً شداً مكيناً. فإذا وجد في إنسان جانب من الخير فلا بد من ارتباطه بجوانب أخرى منه، ولا بد من ظهور هذه الجوانب عند المناسبات. وفي هذه النظرة إشارة صريحة إلى أن الوجود واحد

متكافئ عادل خير سواء أكان وجوداً عاماً كبيراً، أو وجوداً خاصاً مصغراً يتمثل بالإنسان: (إذا كان في رجل خلة رائقة فانتظروا أخواتها!) خامساً، ومثل هذه العدوي الخيرة بين الخلال الرائقة، عدوي مماثلة تنتقل من الخير إلى الشر بين الناس والناس: (جالس أهل الخير تكن منهم!) و (اطلبوا الخير وأهله). سادساً، الإيمان العميق في طاقة الإنسان أياً كان أن ينهج نهج الخير، وأنه ليس من إنسان أجدر من إنسان آخر بهذا النهج: (ولا يقولن أحدكم إن أحداً أولى بفعل الخير مني!)

سابعاً، على المرء ألا يستكثر من فعل الخير كثيراً. بل إن ما يفعله من خير يظل قليلاً مهما كان كثيراً لأن في الاكتفاء بقدر من الخير جحوداً بخير الوجود العظيم وإنكاراً لطاقة

الإنسان الذي ينطوي فيه العالم الأكبر. يقول علي في أهل الخير: (ولا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون (١))

ثامناً، لا بد من الإشارة إلى النظرة العميقة التي يلقيها علي على مفاهيم النزوع الإنساني إلى

ما يجعل الناس، كل الناس، في نعيم. فإذا نحن نظرنا في آثار معظم المفكرين الذين أعاروا شؤون الناس اهتمامهم، رأينا أن لفظة (السعادة) هي التي تتردد في هذه الآثار، وأن مدلول هذه اللفظة إنما، هو بالذات، مدار أبحاثهم وغاية ما يريدون. أما علي فقد استبدل بلفظة (السعادة) هذه ما هو أبعد مدى، وأعمق معنى، وأرحب أفقاً، وأجل شأناً في ما يجب أن تتصف به الطبيعة الإنسانية ويصبو إليه. لقد استبدل ب (السعادة) هذه، لفظة (الخير) فما كان يوجه القلوب إليها بل إليه. لأن في السعادة ما هو محصور في نطاق الفرد، ولأن الخير ليس

١ - من أعمالهم مشفقون: خائفون من التقصير فيها

بمحصور في مثل هذا النطاق. فالخير إذن أعظم! ثم إن الخير يحتوي السعادة ولا
تحتويه،

فهو أشمل! أضف إلى ذلك أن بعض الناس قد يسعدون بما لا يشرف الإنسان، وأنهم
قد

يسعدون بما يؤذي الآخرين، وأنهم قد يتفهون ويترهلون وهم يحسبون أنهم بذلك
سعداء. أما الخير فهو غير السعادة إذ يكون معدنها هذا المعدن. فهو السعادة منوطة
بسعادة الناس جميعا. وهو الرضى عن أحوال الجسد والعقل والضمير! لذلك أكثر علي
من استخدام هذا اللفظ في دعوته الحارة إلى كل ما يرفع من شأن الإنسان!
ولم أعر في آثار ابن أبي طالب على لفظة (السعادة) إلا مرة واحدة. ولكنه لا يخرج
بمعناها الذي يقصد عن مفهوم الخير بما يحملها من حدوده ومعانيه. إما العبارة التي
وردت فيها لفظة (السعادة) فهي هذه: (من سعادة الرجل أن تكون زوجته صالحة
وأولاده أبرارا وإخوانه شرفاء وجيرانه صالحين ورزقه في بلده).
فانظر كيف ربط

سعادة المرء بسعادة المحيطين به من أفراد عائلته ثم بسعادة إخوانه وجيرانه جميعا. بعد
ذلك ناط سعادة هذا الرجل بسعادة بلاده مستندا إلى أنها بلاد تنتج الرزق لجميع أبنائها
وهو واحد منهم!

تاسعا، إن خير الوجود وخير الإنسان يستلزمان، بالضرورة، الثقة بالضمير الإنساني
ثقة تجعله حكما أخيرا في ما يضر وينفع. ولنا في هذا الموضوع رأي نفضله نقول:
من روائع ابن أبي طالب ما يخاطب به العقل وحده. ومنها ما يخاطب الضمير.
وأكثرها مما يتوجه به إلى العقل والضمير مجتمعين. أما تلك التي يخاطب بها العقل،
فقل

إنها الغاية في الأصالة وإنها نتيجة محتومة لنشاط العقل الذي لاحظ ودقق وتمرس بخير
الزمان وشره، وعرف من التجارب كل ما يكشف له عن الحقائق ويجليها، فإذا هي
مصوغة على قواعد هندسية ذات حدود وأبعاد لشدة ما ترتبط بالحقائق، ومظهرة
في أروع إطار فني لشدة ما ترتبط بالجمالية التعبيرية، مما يجعلها، من حيث المادة
والشكل،

في أصول الأدب الكلاسيكي العربي.

وفي هذا النوع من الحكم الموجهة إلى العقل، نرى عليا يصور تاركا للناس أن يحكموا
بما يرون. فيأخذوا إذا شأؤوا أو يتركوا. لذلك لا نرى في هذا النوع من الحكم صيغ
الطلب. إنما نرى حكما صيغت بقالب خبري خالص جرد من صور الأمر والنهي
جميعا،

(Y)

حكما تتبلور فيها طبائع الصديق والعدو، والمحسن والمسيء، والأحمق والعاقل،
والبخيل
والكريم، والصادق والمنافق، والظالم والمظلوم، والمعوز والمتخم، وصاحب الحق
وصاحب الباطل، ومفهوم الخلق السليم والخلق السقيم، وشؤون الجاهل والعالم،
والناطق
والصامت، والأرعن والحليم، وصفات الطامع والقانع، وأحوال العسر واليسر،
وتقلبات الزمان وما لها من أثر في أخلاق الرجال، وما إلى ذلك من أمور لا تحصى في
فصل أو باب.

أما تلك التي يخاطب بها الضمير، والعقل والضمير مجتمعين، فإليك ما هي وما حولها:
من الثابت أن الذين رأوا في الأنظمة والتشريعات وحدها سلامة الإنسان وكفاية
المجتمع، قد أخطأوا خطأ عظيماً. فإن هذه الأنظمة والتشريعات التي تعلن عن حقوق
الإنسان وتأمّر برعايتها والمحافظة عليها، لا يضبطها في النتيجة، كما لا يخلص في
اكتشافها
وابتداعها، إلا عقل سليم ونفس مهذبة وضمير راق. فإن دنيا الناس هذه يرتبط كل
ما فيها، ضمن حدود معينة طبعاً، بأخلاق القيميين على دساتيرها وأنظمتها، وبمدى
الخير الذي يتسع في نفوسهم أو يضيق، بقدر ما يرتبط بضمير الجماعة التي تؤلف
ميدان
هذه الأنظمة والدساتير وتبرر وجودها. هذا، مع الاعتراف بأن الأنظمة الاجتماعية
الحديثة تتفاوت تفاوتاً عظيماً في سماحتها للقيمين عليها بمسايرتها أو بالخروج عليها
وذلك
بحكم طبيعتها وبنسبة ما تحويه أصولها من إمكانيات التنفيذ. أما الأنظمة والدساتير
القديمة،
فقد كانت أكثر تأثراً بأخلاق القيميين عليها المشرفين على إقامة ما تقتضيه من حدود.
ولذلك أسباب ليست من موضوع حديثنا هذا.

وبالرغم من أن الأنظمة والتشريعات الصالحة من شأنها أن توجه الناس وتفرض عليهم
ما يؤدي إلى نفعهم فرضاً، فإن هذا التوجيه وهذا الفرض يظلان خارج حدود القيمة
الإنسانية

إن لم يوافقهما العمل النابع من الوجدان بالذات. وفي مذهبنا إن كل عمل يأتيه الإنسان
لا بد أنه فاقد الدفء الإنساني، وهو أئمن وأعظم ما يوافق الصنيع الإنساني، إن لم
يحمل
وهج الضمير وعبق النفس وإرادة العطاء على غير قسر وإكراه. ولا تنجح الأنظمة

والتشريعات في إقامة العلاقات الإنسانية إلا بمقدار ما يمكنها أن تتوجه إلى العقل والضمير فتقنعهما بالخير، فتخلق الانسجام الرائع بين إتاحة الفرصة للعمل النافع وإرادة العامل في وحدة تكفل للفرد وللجماعة الصعود في طريق الحضارة. وما يصدق، بهذا الصدد، في نطاق الأفراد والجماعات، يصدق كذلك في تاريخ المفكرين والمشرعين والعلماء والمكتشفين ومن إليهم. فإنك لترى، إذا أنت استعرضت تاريخ هؤلاء الذين خدموا الإنسان والحضارة، أن العقل الذي دلهم على الطريق الصحيح في كل ميدان، لم يكن وحده في تاريخهم. فالعقل بارد، جاف، لا يتعرف إلا إلى الأرقام والأقسام والوجوه ذات الحدود. فهو لذلك يدل على الطريق ولكنه لا يشدك إلى سلوكه ولا يدفعك في سهله ووعره. أما الدافع، فالضمير السليم والعاطفة الحارة. فما الذي حمل ماركوني على العزلة القاسية والانفراد الموحش الكئيب، إن لم يكن الضمير الذي يحسن له الانصراف عن مباحج الحياة إلى كآبة الوحدة في سبيل الحضارة والإنسان؟. وإن لم يكن العاطفة التي تغمر هذا الضمير السليم بالحرارة والدفء فلا يفتر أبدا وما يقال في ماركوني يقال في باستور، وغاليليو، وغاندي، وبتهوفن، وبوذا، وأفلاطون، وغيتي، وفي غيرهم من أصحاب المركب الإنساني القريب من الكمال. والدليل الإيجابي على هذه الحقيقة يستتبع دليلا سلبيا لزيادة الايضاح. فهذا أدولف هتلر، وجانكيزخان، وهولاكو، والحجاج بن يوسف الثقفي، وقيصر بورجيا بطل كتاب (الأمير) المشؤوم لمكيافيللي (١)، وبعض علماء الذرة المعاصرين الذين يوافقون

١ - مكيافيللي: نابغة إيطالي عاش في عصر الرسام العظيم رافاييل، وكان صديقا له ومعينا وقد دفعه عقله الفذ وخلقه الكريم إلى مهاجمة أساليب الظلم والبربرية عند حكام التاريخ فألف كتابه الشهير (الأمير) الذي يصف فيه وقاحة أولئك الحكام، وشخصياتهم المبتذلة بطريقة غير مباشرة إذ دفع إلى الناس صورة عن شخصية الأمير الذي يخلو من كل ضمير وكل عقل وكل ذوق ويلجأ لشتى وسائل العنف في التقتيل والترويع والتشريد وسائر الفظائع تثبتنا لمركزه.. مشيرا إلى أن أمارات التاريخ والعصر الذي هم فيه إنما (تركزت) على هذا الأسلوب السمج. وقد أخذ مكيافيللي صفات (الأمير) في كتابه هذا من شخصية قيصر بورجيا ابن إسكندر بورجيا، صاحب المظالم المعروفة ويطلق على المبدأ القائل باللجوء إلى هذا الأسلوب توسلا إلى الحكم ثم إلى تركيزه، اسم المكيافيلية، نسبة لمكيافيللي صاحب الكتاب.

على تجربتها على الآدميين، ألم يتميز هؤلاء جميعا بعقول واسعة ومدارك قد تهون أمامها

مدارك الآخرين؟ مع ذلك، فما كان من شأنهم إلا التقتيل والتدمير والاعتداء على مقدسات

الحضارة ومخلفات الجهود الإنسانية، وعلى كرامة الحياة والأحياء وخير الوجود! ذلك أن عقولهم لم تواكبها الضمائر السليمة والعواطف الكريمة! فحيث لا ضمير ولا عاطفة، لا نفع من العقل، بل قل إنه إلى المضرة أقرب.

ولا أريد هنا التفصيل بين مختلف قوى الإنسان من عاطفة وضمير وعقل وما إليها، فهي ولا شك تتفاعل وتتعاون. غير أن ما أردته بالعقل هو القوة التي تعقل الأمور على صعيد يربط السبب بالنتيجة ويحكم بين العلة والمعلول، فيدور في نطاق من الأرقام والحدود التي لا تتأثر، بحد ذاتها، بالبيئة الإنسانية الخاصة والعامة. وعلى هذا الضوء أجزت هذا التفصيل.

إذن، فالعقل المكتشف لا بد لصاحبه من ضمير وعاطفة يدفعانه في طريق الخير، وما يصح بهذا الشأن في المشترك يصح في المشترك له. فالأفراد الذين يطلب إليهم أن يسيروا على هذا النظام الخير أو ذاك، لا بد لهم من اقتناع وجداني، إلى جانب الاقتناع العقلي المجرد، يدفعهم في طريق التهذيب الإنساني الرفيع، لبناء المجتمع الصالح. لا بد

لهم من التمرس بالفضائل الأخلاقية التي تحيط الأنظمة والتشريعات بحصون رفيعة منيعة.

لا بد لهم من أن يكونوا خيرين!

لذلك راح علي يحرك في الأفراد عواطف الخير على ما رأينا، ويوقظ فيهم ما غشته الأيام

من الضمائر السليمة. ويعمل على إنمائها وينصح برعايتها. توجه علي إلى الضمائر بتوصياته وخطبه وعهوده وأقواله جميعا. لأنه لم يفته أن لتهذيب الخلق شأنًا في رعاية النظم العادلة، وفي بث الحرارة في المعاملات بين الناس. ولم يفته كذلك، أن هذا التهذيب يطلب لذاته بما هو من القيم الإنسانية، كما يطلب لحماية العدالة

الاجتماعية وسننها بما هو ضبط لنوازع وتوجيه لأخرى. وقد ساعده في ذلك ما أوتي من مقدرة خارقة ينفذ بها إلى أعماق الناس أفرادا وجماعات، فيدرك ميولهم وأهواءهم، ويعرف طباعهم وأخلاقهم، فيزن خيرها وشرها، ثم يصور، ويطور، ويأمر وينهى، على ضوء ثقته الراسخة بالضمير الإنساني الذي يتوجه إليه.

كانت ثقة ابن أبي طالب بالضمير الإنساني ثقة العظماء الذين تألف فيهم العقل النير والقلب الزاخر بالدفء الإنساني، النابض بالحب العميق الذي لا يعرف حدودا. كانت ثقته بهذا الضمير ثقة بوذا وبتهوفن وروسو وغاندي وسائر العظماء الذين مدهم القلب بنور يخبو لديه كل نور. وعلى أساس هذه الثقة أرسى ابن أبي طالب حكمه وأمثاله، وعلى أساسها تترابط الأفكار والتوجيهات التي يخاطب بها وجدانات الناس. وإذا كان للإمام علي مثل هذه الثقة بنواحي الخير في الناس، على ما مني به على أيديهم من نكبات وفواجع، فإنه يأبى إلا أن يلقي بذور هذه الثقة في قلوبهم جميعا. فهو يعرف (أن في أيدي الناس حقا وباطلا وكذبا وصدقا) ولكن الأولى بالمرء أن يفتح عينيه وقلبه على نواحي الخير هذه، فلعلها هي التي تنمو دون نواحي الشر. ولعل التعليم بالمثل

والسيرة يكون أجل وأجدى. وقد طالما كرر علي وصاياه بضرورة هذه الثقة بالضمير الإنساني، وفي جملة ما يقوله: (من ظن بك خيرا فصدق ظنه). ويقول في مكان آخر: (لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها في الخير محتملا) و (ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة و (وإذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه خزية، فقد ظلم) و (وأسوأ الناس حالا من لم يثق بأحد لسوء ظنه، ولم يثق به أحد لسوء فعله!).

وقد أخطأ دارسو الإمام علي ساعة رأوا أنه متشائم بالناس شديد التشاؤم، متبرم بهم كثير التبرم. وساعة احتجوا لرأيهم هذا بأقوال له يهاجم بها أبناء زمانه بشدة وعنف. أما رأينا نحن فعلى العكس من ذلك تماما. رأينا أن عليا لم ينقض ثقته بالإنسان ساعة واحدة

وإن نقضها ببعض الناس في بعض الظروف. فمن عرف طاقة ابن أبي طالب على احتمال

المكاره تأتيه من الناس، وجلده العجيب في مقاساة الأهوال الناجمة عن الغدر والخيانة والفجور في الكثير من خصومه وأنصاره، ثم ما كان من أموره معهم جميعا إذ يأخذهم بالرفق والعطف ما أمكنه أن يرفق وأن يعطف، أقول: من عرف ذلك أدرك أن عليا عظيم التفاؤل بحقيقة الإنسان، وبفطرته التي أضلها المجتمع في بعض أحواله، لا يختلف في ذلك عن أخيه العظيم روسو.

وإذا كان له في ذم أهل الخيانة والغدر والظلم قول كثير، فما ذاك إلا لأنه يعترف،
ضمننا، أن الإنسان ممكنا إصلاحه ولو طال على ذلك الزمن. فإن المتفائل وحده هو
الذي

يزجر المسئ كما يثيب المحسن أملا منه بتقويم الاعوجاج في الخلق والمسلك. ولو
لم

يكن لابن أبي طالب مثل هذا الأمل، لما استطاع احتمال ما لا يحتمل من مكاره
الدهر التي جرها عليه المسيئون، ولما صبر على ما يكره! وهو إن قال في الدنيا وأهلها:
(فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية، يهر بعضها بعضا، ويأكل عزيزها ذليلها،
ويقهر كبيرها صغيرها) فإنما يقول ذلك لأنه قاسى من غدر الغادرين وفجر الفاجرين
ما ألمه وآذاه. فوبخهم هذا التوبيخ الموجه إثاراً منه لمن لا يفجر ولا يغدر ولا يكون
كلبا

عاويا ولا سبعا ضاريا ولا عزيزا يأكل ذليلا أو كبيرا يقهر صغيرا! يقول ذلك ثم يحارب
السبع الضاري والعزيز الظالم والكبير الجائر كما يحارب الطبيب الجراثيم إثاراً منه
لسلامة

البدن والروح، بل إثاراً منه للحياة على الموت، وتفاؤلاً بحسن النجاة!
إذن فالإمام علي، وهو الذي يحترم الحياة: أعظم ما خلق الله، ويحترم الناس الأحياء
أجمل نماذج هذه الحياة، عظيم الثقة بالخير الإنساني عظيم التفاؤل بالإنسان يريد حرا
كما يجب أن يكون!

ولولا هذه الثقة وهذا التفاؤل لما كان من أمره مع الناس ما كان، ولما قال: (لا تظنن
بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً!) ثم لما توجه إلى
الضمير الفردي الجماعي بوصاياه التي تجمع عمق الفهم وحرارة العاطفة إلى سمو
الغاية

ونبل المقاصد. هذه الوصايا التي أرادها حصناً منيعاً للأخلاق العامة، والعاطفة الإنسانية،
وتركيز العمل النافع على أسس الإيجابية في العقل والضمير. واستناداً إلى هذه الثقة
بالضمير

الإنساني، وتحصينا للعمل الخير الشريف، نراه يقيم على الناس أرصاداً من أنفسهم
وعيوننا

من جوارحهم فيخاطبهم قائلاً: (اعلموا أن عليكم رقداً من أنفسكم وعيوننا من
جوارحكم وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم!)
واستناداً إلى هذه الثقة بخير الوجود وعدله، وإلى عظمة الحياة والأحياء، يخاطب علي
ابن أبي طالب أبناء زمانه بما يوقظهم على أن الحياة حرة لا تطبق من القيود إلا ما كان

سببا في مجراها وواسطة لبقائها وقبسا من ضيائها وناموسا من نواميسها. وأنها لا يطيب لها البقاء في مهد الأمس. فعليهم ألا يحاولوا غلها وتقييدها وإلا أسنت وانقلبت إلى فناء. فالحياة جميلة، كريمة، حرة، خيرة كالوجود أبيها، تحفظ نفسها بقوانينها الثابتة لا بما يريد لها المتشائمون من قوانين. وهي متجددة أبدا، متطورة أبدا، لا ترضى عن تجددتها وتطورها بديلا وهما أسلوب تنهجه في فتوحاتها التي تستهدف خيرا أكثر وبقاء أصح. وملاحظة ابن أبي طالب الدقيقة العميقة للحياة ونواميسها وهي أعظم موجودات الوجود الخير، مكنت في نفسه الإيمان بثورية الحياة المتطلعة أبدا إلى الأمام، المتحركة أبدا في اتجاه الخير الأكثر. وثورية الحياة أصل تحركها وسبب تطورها من حسن إلى أحسن. ولهذا كانت الحياة حرة غير مقيدة إلا بشروط وجودها. وثورية الحياة أصل تحرك المجتمع الإنساني وسبب تطوره. ولولا هذه الخاصة لكانت الحياة شيئا من الموت والأحياء أشياء من الجماد. آمن ابن أبي طالب بثورية الحياة أيما أشبه بالمعرفة، أو قل هو المعرفة. فترتب عليه إيمان عظيم بأن الأحياء يستطيعون أن يصلحوا أنفسهم وذلك بأن يمشوا قوانين الحياة. ويستطيعون أن يكونوا أسياد مصائرهم وذلك بأن يخضعوا لعبقرية الحياة. وقد سبق أن قلنا في حديث مضى إن ثورية الحياة ألصق مزايا الحياة بها وأعظمها دلالة على إمكاناتها العظيمة. وهي تستلزم من المؤمنين بها أن يعملوا على أساس من الثقة المطلقة بالتطور المحتوم، وأن ينبهوا الخواطر إليه، وأن يستخدموا الدليل والبرهان في زجر المحافظين عن كل تصرف غبي يتوهم أصحابه أنهم يستطيعون الوقوف في وجه الحياة الثائرة المتطورة بثورتها. بهذه الثقة وبهذا الإيمان خاطب ابن أبي طالب الإنسان بقوله: (فإنك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك!) ففي هذا القول اعتراف بأن الحياة متطورة، وأن التعلم إنما هو الانتفاع بما تخزن الحياة من عبقريتها في صدور أبنائها، على ما قلنا سابقا. وفيه إيمان بالقابلية الإنسانية العظيمة للتقدم، أو قل للخير. وما دعوته الحارة إلى المعرفة التي تكشف كل

يوم عن جديد، وتبني كل يوم جديدا، إلا دليل عن الإيمان بثورية الحياة الخيرة وإمكانات الأحياء. فالمعرفة لديه كشف وفتح لا يهدآن. وهو بهذا الإيمان وهذه الثقة يخاطب أبناء زمانه يقول: (لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم). فلولا تفاؤله العظيم بأن في الحياة جمالا، وبأن في الناس قابلية التطور إلى الخير، لما أطلق هذا القول الذي يوجز علمه بثورية الحياة، ويوجز تفاؤله بإمكانات الإنسان المتطور مع الحياة، كما يوجز روح التربية الصحيحة، ويخلص كل جيل من الناس من أغلال العرف والعادة التي ارتضاها لنفسه جيل سابق.

ولابن أبي طالب في هذا المعنى قول كثير منه هذه الآيات الخالدة التي يمجد بها العمل

بوصفه حقيقة وثورة وخيرا ٦ (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) و (قيمة كل امرئ ما يحسنه) و (اعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون) و (لكل امرئ ما اكتسب). ومن أقواله ما يدفع به المرء إلى أن يطلب التقدم بالعمل، وألا يحجم أو يتراجع إذا هو أخفق كثيرا أو قليلا، لأن الوجود الخير لا يحرم أبناءه ما يستحقون. وإذا هو حرمهم فبعض الحرمان لا كله. وقد يسوى الأمر في دفعة ثانية من الطلب بواسطة العمل.

ومن قوله في ذلك هذه الآية: (من طلب شيئا ناله أو بعضه). وأظن أن القارئ فطن إلى روح هذه العبارة التي تتألق وكأنها انبثاق عن كلمة المسيح الشهيرة: (اقرعوا اقرعوا يفتح لكم).

ولعل أجمل ما في المذهب العلوي بهذا الشأن، أن صاحبه كان يوحد ثورية الحياة وخير الوجود نصا كما كان يوحدهما روحا ومعنى. فلشد ما نراه يوحد معنى التطور، أو ثورية الحياة، بمعنى خير الوجود توحيدا لا يجعل هذا شيئا من تلك، ولا تلك شيئا من هذا، بل يجعل ثورية الحياة كلا من خير الوجود، وخير الوجود كلا من ثورية الحياة. وإن في آياته هذه لدليلا كريما على صحة ما نقول فليس فيها ما يحتاج إلى شرح أو تعليق.

وإليك نموذجا عنها: (العاقل من كان يومه خيرا من أمسه) و (من كان

غده شرا من يومه فهو محروم) و (من اعتدل يوماه فهو مغبون). وأخيرا إليك هذه
الرائعة التي تجمع كل ما نحن بصدده الآن، إلى دفء الحنان العميق، إلى جمال الفن
الأصيل، إلى إشراك الأيام بأحاسيس البشر:
(ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد،
فقل في خيرا واعمل خيرا فإنك لن تراني بعد أبدا!)
ولسوف نسوق في هذا الكتاب روائع لابن أبي طالب ستبقى ما بقي الإنسان الخير.
وإنها لطائفة تؤلف نهجا في الأخلاق الكريمة، والأحلام العظيمة، والتهديب الإنساني
الرفيع الذي أراده انبثاقا عن ثورية الحياة وخير الوجود!
بيروت
جورج جرداق

الفاحة العلوية

(٨١)

أو أقنع من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر؟!
إمّنع من الاحتكار.
إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة.
ألا وإني أقاتل رجلين: رجلا ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه
ما جاع فقير إلا بما متع به غني
ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع
وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها. وأنما يعوز أهلها لإشراف
أنفس الولاة على الجمع (١)
وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج
ليس بلد أحق بك من بلد خير البلاد ما حملك.

١ - إشراف أنفس الولاة على الجمع: تطلعهم إلى جمع المال وادخاره لأنفسهم طمعا وجشعا.

الفقر في الوطن غربة
لو تمثل لي الفقر رجلا لقتلته
يسأل - ابن آدم - يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه
كيف تسيغ طعاما وشرابا وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما
ظلم الضعيف أفحش الظلم، والظلم يدعو إلى السيف، وخاب من
حمل ظلما
يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم
العامل بالظلم، والمعين عليه، والراضي به: شركاء ثلاثة
لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من
أضعت حقه
مهما كان في كتابك - موظفيك - من عيب فتغايبت عنه ألزمته
إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام
ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهم
جماع من شعب الجور والخيانة
إحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحي منه في العلانية
إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس
قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعه فيها من عدل أو جور وجدته فيها
لا تظهر مودة الرعية ولا نصيحتهم إلا بقلة استئصال دولهم

إذا تغير السلطان تغير الزمان
إن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة
إذا غضب الله على أمة غلت أسعارها وغلبها أشرارها
ولكنني آسى أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا المال دولا
وعباده خوولا (١)
العلماء حكام الملوك، والبغي آخر مدة الملوك
العلم دين يدان به
الأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر
إنها ساعة - من الليل - لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له، إلا أن
يكون عشارا أو عريفا أو شرطيا (٢)
ثلاثة يؤثرون المال: تاجر البحر، وصاحب السلطان، والمرتشي في
الحكم
إذا كان الراعي ذئبا، فالشاة من يحفظها؟!
لعن الله الأمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به

١ - آسى: أحزن. المال دولا، جمع دولة (بالضم) أي: شيئا يتداولونه بينهم
ويتصرفون به في غير حق. خوولا: عبيدا.
٢ - العشار: من يتولى أخذ الضرائب من الناس. العريف: من يتجسس على أحوال
الناس وأسرارهم ويكشفها للحاكم. الشرطة: أعوان الحاكم.

واعلموا أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق
كليل، واللازم للحق ذليل.
الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له. والقوي عندي ضعيف حتى
آخذ الحق منه
يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل، ولا يظرف إلا الفاجر،
ولا يضعف إلا المنصف (١)

١ - الماحل: الساعي في الناس بالوشاية عند الحاكم. يظرف يعد ظريفا. يضعف
يعد ضعيفا.

طائفة من رسائله
وخطبه وعهوده ووصاياه

عبادة الأحرار
من كلام رائع له في معنى العبادة:
إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار!
وإن قوما عبدوا الله
رهبة فتلك عبادة العبيد! وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار!
أيها الناس
من خطبة له في المدينة:
الاحتكار مطية النصب، والحرص داع للتقحم في الذنوب، والشره
جامع لمساوي العيوب.
أيها الناس، لا كنز أنفع من العلم، ولا عز أرفع من الحلم، ولا سوءة
أسوأ من الكذب، ولا غائب أقرب من الموت!
أيها الناس، من نظر في عيب نفسه شغل عن عيب غيره، ومن سل
سيف البغي قتل به، ومن حفر بئرا وقع فيها، ومن نسي زلله استعظم زلل
غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على
الناس ذل.
في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال، والأيام توضح السرائر الكامنة،
وكفالك أدبا لنفسك ما تكرهه من غيرك. ومن استقبل وجوه الآراء عرف

مواقع الخطأ. والمودة قرابة مستفادة. وعليك لأخيك مثل الذي لك عليه.
ولا تنال نعمة إلا بزوال أخرى. ولكل ذي رفق قوت. ولكل حبة
آكل، وأنت قوت الموت.

أيها الناس. إياكم والخديعة فإنها من خلق اللثام. تصفية العمل أشد من
العمل (١) وتخليص النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد،
هيهات! لولا التقى لكنت أدهى العرب!

عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر (٢)
وبالعدل على الصديق والعدو، وبالرضا في الشدة والرخاء، ومن ترك
الشهوات كان حرا، وإعجاب المرء بنفسه دليل ضعف عقله. وبئس
الزاد إلى المعاد: العدوان على العباد!
يا أبا ذر

من كلام للإمام للصحابي العظيم أبي ذر
الغفاري لما أخرجه الخليفة الثالث إلى (الربذة)
وهو موضع قفر على قرب من المدينة، وبعث
من ينادي في الناس: (ألا لا يكلم أحد
أبا ذر ولا يشيعه!) وقد تحاماه الناس إلا
ابن أبي طالب، وعقيلًا أخاه، والحسن
والحسين ولديه، وعمارا:

يا أبا ذر، إنك غضبت لله فارح من غضبت له. إن القوم خافوك على

١ - تصفية العمل خالصا لوجه الحق.

٢ - القصد الاعتدال.

دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب
بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم (١) وما أغناك عما منعوك!
لو أن السماوات والأرض كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله
له منهما مخرجا! لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل، فلو
قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمنوك
كلما اطمأن

من كتاب له إلى سلمان الفارسي قبل أيام
خلافته:

وكن آنس ما تكون بها - الدنيا - أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها
كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور.
السلام عليك يا رسول الله
من كلام روي أنه قاله عند دفن السيدة
فاطمة:

السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة
اللحاق بك. قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي،

١ - لو قرضت منها جزءا وخصصت به نفسك ورضيت أن تنال منها مثل ما نالوا هم،
لاطمأنوا إليك.

إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز (١).
أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي
أنت بها مقيم.

أفضل الناس وشرهم
من كلام له لما اجتمع الناس عليه وشكوا
مما نقموه على عثمان بن عفان، وسألوه
أن يخاطب الخليفة الثالث ويستعبته لهم. فدخل
عليه فقال:

إن الناس ورائي، وقد استسفروني بينك وبينهم (٢). والله ما أدري
ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على شيء لا تعرفه.
إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء
فنبلغكه، وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا.. فالله الله في نفسك
فإنك والله ما تبصر من عمى، وإن الطرق لواضحة. فاعلم أن أفضل
عباد الله عند الله إمام عادل هدي وهدى. وإن شر الناس عند الله إمام
جائر ضل وضل به. وإني سمعت رسول الله (ص) يقول، (يؤتى يوم
القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، يلقي في نار جهنم
فيدور فيها كما تدور الرحي، ثم يرتبط في قعرها!) وإني أنشدك الله
أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة
إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أموراً عليها،

١ - التأسي، هنا: الاعتبار بالمثل المتقدم
٢ - استسفروني: جعلوني سفيرا ووسيطا.

ويثبت الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يمجون فيها موجا
ويمرجون فيها مرجا (١)، فلا تكونن لمروان سيقة (٢) يسوقك حيث
شاء بعد جلال السن وتقصي العمر!
استأثر فأساء الأثرة

من كلام له في معنى قتل عثمان:
لو أمرت به لكنت قاتلا أو نهيت عنه لكنت قاصرا (٣) غير أن نصره
لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه. ومن خذله لا يستطيع أن
يقول: نصره من هو خير مني (٤) وأنا جامع لكم أمره: استأثر فأساء

١ - المرج: الخلط والتليس.

٢ - السيقة: ما استاقه العدو من الدواب. أما مروان، فهو ابن الحكيم الشهير، وكان
في عهد عثمان كاتباً له ومشيراً، وهو صاحب العلل التي تقم الناس من أجلها على
الخليفة الثالث.

٣ - يقول إنه لم يأمر بقتل عثمان وإلا كان قاتلاً له، مع أنه برئ من قتله. ولم يدافع
عنه بسيفه ولم يقاتل دونه وإلا كان ناصراً له. أما نهيه عن قتله بلسانه فهو ثابت
وهو الذي أمر ولديه الحسن والحسين أن يدفعوا الناس عنه.

٤ - أي إن الذين نصره ليسوا بأفضل من الذين خذلوه، لهذا لا يستطيع ناصرهم أن
يقول: إني خير من الذي خذله. ولا يستطيع خاذله أن يقول: إن الناصر خير مني.
يريد أن القلوب متفقة على أن ناصرهم لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون
به على خاذليه.

الأثرة (١)، وجزعتم فأسأتم الجزع (٢)! ولله حكم واقع في المستأثر
والجازع (٣)!
أنا كأحدكم
من خطبة رائعة له لما أريد على البيعة بعد
قتل عثمان:

دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له
القلوب ولا تثبت عليه العقول (٤) وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد
تنكرت (٥)، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلي

-
- ١ - استأثر بالشيء: استبد به وخص نفسه به. أي: إنه استبد فأساء الاستبداد وكان عليه أن يخفف منه فلا يؤذيك.
 - ٢ - أي: لم ترفقوا في جزعكم ولم تقفوا عند الحد الأولي بكم. وكان عليكم أن تقتصروا على الشكوى ولا تذهبوا في الإساءة إلى درجة القتل.
 - ٣ - أي: ولله حكمه في المستأثر وهو عثمان. وفي الجازع وهو أنتم.
 - ٤ - لا تصبر له ولا تطيق احتمالاه.
 - ٥ - أغامت: غطت بالغيمة. المحجة: الطريق تنكرت: تغيرت علائمها فصارت مجهولة وذلك أن الأطماع كانت قد تنبعت في كثير من الناس على عهد الخليفة الثالث بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء، فلا يسهل عليهم فيما بعد أن يكونوا في مساواة مع غيرهم، فلو تناولهم العدل انفتلوا منه وطلبوا الفتنة طمعا في نيل رغباتهم، وأولئك هم أغلب الرؤساء والوجهاء في القوم، فإن أقرهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز فقد أتى ظلما، وهو عدو الظلم. والناقمون على عثمان قائمون على المطالبة بالعدل: إن لم ينالوه تحرشوا للفتنة! فأين الطريق للوصول إلى الحق على أمن من الفتنة؟! وقد كان بعد بيعته ما توقع حدوثه قبلها.

قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم
وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً!
الحق لا يبطله شيء

من خطبة رائعة له خطب بها الناس ثاني
يوم من بيعته بالمدينة، وهي في ما رده علي
الناس من قطائع (١) الخليفة الثالث، وفي
المال الذي كان عثمان قد أعطاه من مال
العامة:

أيها الناس، إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم وعلي ما عليكم. ألا إن
كل قطعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في
بيت المال فإن الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء
وملك الإماء وفرق في البلدان لرددته. فإن في العدل سعة، ومن ضاق
عليه العدل فالجور عليه أضييق (٢)

أيها الناس، ألا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا
العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرققة، إذا ما
منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرماً
ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من
أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له علي سواه بصحبته، فإن الفضل غداً عند الله.
فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية ولا
فضل فيه لأحد علي أحد!

١ - ما أعاد للناس من الأراضي.

٢ - من عجز عن تدبير أمره بالعدل فهو بالجور أشد عجزاً.

أسفلكم أعلاكم
من كلام له لما بويح بالمدينة:
ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه
وسلم (١). والذي بعثه بالحق لتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر (٢)
حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا
قد قصروا، وليقطنن سابقون كانوا قد سبقوا. والله ما كتمت وشمة (٣)
ولا كذبت كذبة! ألا وإن الخطايا خيل شمس (٤) حمل عليها أهلها
وخلعت لجمها فتقحمت بهم في النار! ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل
عليها أهلها وأعطوا أزمتهما فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل!
هلك من ادعى وخاب من افترى ومن أبدى صفحته للحق هلك (٥)
وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره. فاستتروا في بيوتكم وأصلحوا ذات
بينكم، والتوبة من ورائكم ولا يحمد حامد إلا ربه، ولا يلم لائم
إلا نفسه!

-
- ١ - إن بلية العرب التي كانت محيطية بهم يوم بعث محمد هي بلية الفرقة والتباعد والعصبية وظلم القوي للضعيف والغني للفقير. فتلك الحالة التي هي مهلكة للأمم قد صاروا إليها بعد مقتل عثمان.
 - ٢ - لتغربلن: لتقطعن من. ساط، من السوط، وهو أن تجعل شيئين في القدر وتضربهما بيدك حتى يختلطا وينقلب أعلاههما أسفلهما وأسفلهما أعلاههما.
 - ٣ - الوشمة: الكلمة.
 - ٤ - شمس، جمع شمس، وهو الجامح الذي يمنع ظهره أن يركب.
 - ٥ - من أبدى صفحته للحق، أي: من كاشف الحق مخاصما له مصارحا له بالعداوة.

عفا الله عما سلف
من خطبة له خطبها بعد مقتل عثمان في
أول خلافته:

أيها الناس، إن الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد إليها (١)،
ولا تنفس (٢) بمن نafs فيها، وتغلب من غلب عليها. وأيم الله، ما كان قوم
قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها، لأن
الله ليس (بظلام للعبيد). ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول
عنهم النعم، فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم،
لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. وإني لأخشى عليكم أن
تكونوا في فترة (٣) وقد كانت أمور مضت ملتئم فيها ميلة، كنتم فيها
عندي غير محمودين، ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء. وما علي
إلا الجهد، ولو أشاء أن أقول لقلت: عفا الله عما سلف!
الرشوة

من كتاب له إلى أمراء الأجناد لما
استخلف:

أما بعد، فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق

١ - المخلد إليها: الراكن إليها.

٢ - تنفس، مضارع نفس: تضمن. ومعنى العبارة: إن الدنيا لا تضمن بمن يباري
غيره في اقتنائها وعددها من نفائسه، ولا تحرص عليه بل تهلكه.

٣ - الفترة، هنا كناية عن الجهل والغرور.

فاشتروه (١) وأخذوهم بالباطل فاقتدوه (٢)

إن لم تستقيموا

من كتاب له إلى أمراءه على الشغور:

أما بعد، فإن حقا على الوالي أن لا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طول

خص به (٣) وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوا من عباده

وعطفا على إخوانه.

ألا وإن لكم عندي أن لا أؤخر لكم حقا عن محله، وأن تكونوا

عندي في الحق سواء. فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم

الطاعة وأن لا تنكصوا عن دعوة (٤) ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا

الغمرات إلى الحق (٥)، فإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحد أهون

علي ممن اعوج منكم، ثم أعظم له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصة!

-
- ١ - أي: حجبا عن الناس حقهم فاضطر الناس لشراء الحق منهم بالرشوة...
 - ٢ - أي كلفوهم بإتيان الباطل فأتوه، وصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء.
 - ٣ - الطول: عظيم الفضل. أي: من الواجب على الوالي إذا خص بفضله أن يزيده ذلك قربا من الناس إخوانه وعطفا عليهم، وليس من حقه أن يتغير.
 - ٤ - أي: أن لا تتأخروا إذا دعوتكم.
 - ٥ - الغمرات: الشدائد.

أنصفوا الناس
من كتاب له إلى عما له على الخراج:
أنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم فإنكم خزان الرعية (١)
ووكلاء الأمة. ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون
عليها (٢). ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم، ولا تمسن
مال أحد من الناس مصل ولا معاهد (٣).
أطلب النصر بالجور
من كلام له لما عوتب على التسوية في
العطاء:

أتأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه؟ والله ما أطور
به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجما (٤). لو كان المال لي لسويت.

-
- ١ - المقصود هو أن الولاء يجب أن يخزنوا أموال الرعية في بيت المال لتنفق في مصالح الرعية وحاجاتها.
 - ٢ - يقول: لا تضطروا الناس لأن يبيعوا لأجل أداء الخراج شيئا من كسوتهم، ولا من الدواب اللازمة لأعمالهم في الزرع والحمل.
 - ٣ - المعاهد: غير المسلم من أهل الكتاب. يقول لا تلجأوا إلى السوط تحصيلًا للمال. ولا تمسوا مال أحد من المسلمين أو أهل الكتاب بالمصادرة.
 - ٤ - ما أطور به: ما أمر به ولا أقاربه. وما سمر سمير، أي: مدى الدهر.

بينهم، فكيف وإنما المال مال الله! ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبيذير وإسراف.

الناس متساوون في الحق
من كلام له كلم به طلحة والزبير بعد
بيعته بالخلافة وقد عتبا من ترك مشورتهم،
والاستعانة في الأمور بهما

لقد نقمتما يسيرا وأرجأتما كثيرا (١). ألا تخبرانني أي شيء لكما فيه حق دفعتمكما عنه؟ وأي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه ألي أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه؟!
والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة (٢). ولكنكم دعوتموني إليها، فلما أفضت إلي نظرت إلى كتاب الله، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما.
أما ما ذكرتما من أمر الأسوة (٣)، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله (ص) قد فرغ منه فلم أحتج إليكما في ما قد فرغ الله من قسمه. أخذ الله بقلوبنا

١ - أي غضبتما ليسير، وأخرتما مما يرضيكما كثيرا لم تنظرا إليه.

٢ - الإربة: الغرض، والطلبية.

٣ - الأسوة، هنا: التسوية بين الناس في قسمة الأموال، وكان ذلك قد أغضب طلحة والزبير على ما روي.

وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ورحم الله امرأ رأى حقاً
فأعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه!

إلى أصحاب الجمل
من كتاب له بعث به إلى طلحة والزبير
وعائشة قبل موقعة الجمل:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى طلحة والزبير وعائشة، سلام عليكم.
أما بعد، يا طلحة والزبير، فقد علمتما أنني لم أرد البيعة حتى أكرهت
عليها، وأنتما ممن رضي بيعتي. فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا إلى الله
وارجعاً عما أنتما عليه. وإن كنتما بايعتما مكرهين فقد جعلتما لي السبيل
عليكما، بإظهاركما الطاعة وكنمانكما المعصية.

وأنت يا طلحة، شيخ المهاجرين، وأنت يا زبير، فارس قريش،
دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه
قبل إقراركما.

وأنت يا عائشة، فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله تطلبين أمراً
كان عنك موضوعاً، وتزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس! فخبيريني
ما للنساء وقود الجيوش، والبروز للرجال! وطلبت، على زعمك،
دم عثمان، وعثمان من بني أمية وأنت من تيم. ثم أنت بالأمس تقولين
في ملاء من أصحاب رسول الله: (اقتلوا نعثلاً، قتله الله فقد كفر!)
ثم تطالبن اليوم بدمه! فاتقي الله وارجعي إلى بيتك، واسبلي عليك سترك
والسلام

أخرج من جحرك
من كتاب له إلى أبي موسى الأشعري،
وهو عامله على الكوفة، وقد بلغه عنه تشييطه
الناس على الخروج إليه لما ندبهم لحرب
أصحاب الجمل:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس.
أما بعد، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك. فإذا قدم رسولي عليك فارفع ذيلك
واشدد مئزرك واخرج من جحرك وأندب من
معك (١).

إعقل عقلك (٢) واملك امرك وخذ نصيبك وحظك. فإن كرهت
فتنح إلى غير رحب ولا في نجات!
والله إنه لحق مع محق، وما أبالي ما صنع الملحدون!
قيام الحججة

من كلام له كلم به بعض العرب - واسمه
كليب الجرمي - وقد أرسله قوم من أهل البصرة
ليعلم لهم من الامام حقيقة حاله مع

١ - رفع الذيل وشد المئزر: كناية عن التشمير للجهاد. الجحر، هنا: كناية عن المقر.
انذب: أدع.

٢ - قيده بالعزيمة ولا تدعه يذهب مذاهب التردد.

أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم.
فبين له الإمام من أمره معهم ما علم به أنه
على الحق، ثم قال له: بايع! فقال الرجل:
إني رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع
إليهم. فقال الإمام هذا القول الرائع:
أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائدا تبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت
إليهم وأخبرتهم عن الكلا والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب (٢)
ما كنت صانعا؟
قال الرجل: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء فقال الإمام:
فامدد إذا يدك!
فقال الرجل: فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي، فبايعته
عليه السلام!
وقيل للإمام ذات مرة: بأي شيء غلبت الأقران؟ فأجاب:
ما لقيت رجلا إلا أعانني على نفسه!
أراد أن يغالط
من كلامه الزاخر بالمنطق في طلحة وموقفه
من قضية عثمان، قبل مقتله وبعده:
قد كنت وما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب. والله ما استعجل

-
- ١ - مساقط الغيث: المواضع التي يسقط فيها المطر فتخضر وتزدهر.
٢ - المعاطش، جمع معطش، وهو: مكان العطش، أي الذي لا ماء فيه. والمجادب،
جمع مجذب، وهو مكان الجذب، أي القحط والمحل.

متجردا (١) للطلب بدم عثمان إلا خوفا من أن يطالب بدمه لأنه مظنته، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه (٢) فأراد أن يغالط بما أجلب ليلبس الأمر (٣) ويقع الشك! ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث:
لئن كان ابن عفان ظالما، كما كان يزعم، لقد كان ينبغي له أن يؤازر قاتليه أو أن يباذ ناصريه. ولئن كان مظلوما لقد كان ينبغي له أن يكون من المنههين عنه (٤) والمعذرين فيه (٥). ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانبا (٦) ويدع الناس معه فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه ولم تسلم معاذيره!
وإني لصاحبهم

قال عبد الله بن العباس: دخلت على أمير المؤمنين (ع) بذي قار (١) وهو يخصف نعله (٢) فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله

-
- ١ - كأنه سيف تجرد من غمده.
 - ٢ - أحرص عليه أي على دم عثمان، بمعنى سفكه.
 - ٣ - يلبس الأمر: يجعله ملبسا، أي مشتبهها.
 - ٤ - نههه عن الأمر: كفه وزجره عن إتيانه.
 - ٥ - المعذرين فيه: المعتذرين عنه في ما نقم منه.
 - ٦ - يسكن في جانب عن القاتلين والناصرين.
 - ٧ - بلد بين واسط والكوفة، وهو قريب من البصرة. ٨ - يخرزها.

لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقا
أو أدفع باطلا. ثم خرج فخطب الناس فقال
(وذلك عند خروجه لقتال أهل البصرة في
وقعة الجمل):

ما ضعفت ولا جنبت، وإن مسيري هذا لمثلها (١)، فلأنقبن
الباطل حتى يخرج الحق من جنبه (٢). ما لي ولقريش! والله لقد قاتلتهم
كافرين ولأقاتلنهم مفتونين،
وإنني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم
اليوم!

إلام أجيب؟

من كلام له في أصحاب الجمل:

ألا وإن الشيطان قد ذمر حزبه واستجلب جلبيه (٣) ليعود الجور

-
- ١ - ضمير (لمثلها) يعود إلى المعارك التي خاضها الإمام ضد قریش في حروب الإسلام
ضد المشركين، وقد أشار إليها في كلام سابق لهذا الكلام. والمعنى: أنه يسير اليوم
الجهاد في سبيل الحق كما سار قديما.
- ٢ - الباطل يبادر البصيرة فيشغلها عن الحق ويقوم حجابا مانعا لها عنه، فكأنه شيء
اشتمل على الحق فستره. والكلام تمثيل رائع لحال الباطل مع الحق، وحال الإمام
في كشف الباطل وإظهار الحق.
- ٣ - ذمر: حث. الجلب: ما يجلب من بلد إلى بلد.

إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه (١)! والله ما أنكروا علي منكرا
ولا جعلوا بيني وبينهم نصفا (٢). وإنهم ليطلبون حقا هم تركوه ودما هم
سفكوه. فإن كنت شريكهم فيه فإن لهم لنصيبهم فيه، ولئن كانوا
ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم، وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم!
يا خيبة الداعي! من دعا؟ وإلام أجيب؟ (٣) وإني لراض بحجة
الله عليهم وعلمه فيهم، فإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافيا من
الباطل وناصرا للحق! ومن العجب بعثهم إلي أن أبرز للطعان وأن أصبر للجلاد! هبلتهم
الهبول (٤) لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا
أرهب بالضرب، وأني على يقين من ربي وغير شبهة من ديني.

١ - النصاب: الأصل، أو المنبت وأول كل شئ. وفي كلامه هذا إشارة صريحة إلى
رغبة من يعينهم في إعادة الأثرة والظلم واقتناص المغانم إلى إدارة الدولة كما كانت
في عهد بطانة الخليفة الثالث، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بتأليب الناس على الخليفة
الجديد، وهو الإمام، الذي لا يطمعون في أيامه بأن يعود إليهم ما ألفوه في السابق
من حرية التصرف بأموال الدولة وأحوال الناس.

٢ - النصف: العدل، أي: لم يحكموا العدل بيني وبينهم.

٣ - من: استفهامية. وما (في إلام) استفهامية أيضا وقد حذف منها الألف لدخول
(إلى) عليها. ويقصد بالداعي أحد قادة خصومه في موقعة الجمل إذ دعا الإمام
إلى أن يبرز للطعان وكأنه يهدده بالحرب وتناجها. وقوله (من دعا؟) استفهام عن
الداعي ودعوته، استهانة بهما.

٤ - هبلتهم: ثكلتهم. والهبول: المرأة التي لا يبقى لها ولد. وهو دعاء عليهم بالهلاك
لعدم معرفتهم بأقدار أنفسهم... أبالحرب يهدد ابن أبي طالب!؟

في لجة بحر
من كلام له في ذم أهل البصرة بعد
موقعة الجمل:

كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة (١): رغا فأجبتكم، وعقر فهربتكم. أخلاقكم دقاق
وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق (٢)،
والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة
من ربه. وأيم الله لتغرقت بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها
كجؤجؤ طير في لجة بحر (٣)
قتلوهم صبورا وغدرا
من خطبة له في ذكر أصحاب الجمل:

فخرجوا يجرون حرمة رسول الله (٤) صلى الله عليه وآله، متوجهين
بها إلى البصرة: فحبسوا نساءهم في بيوتهم وأبرزوا حبيس رسول الله (ص) لهم
ولغيرهم في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة
طائعا غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم
من أهل: فقتلوا طائفة صبورا (٥) وطائفة غدرا! فوالله لو لم يصيبوا من

١ - يريد الجمل.

٢ - دقة الأخلاق: دنائتها. زعاق، مالح.

٣ - الجؤجؤ: الصدر.

٤ - حرمة رسول الله كناية عن زوجته، وأراد بها السيدة عائشة.

٥ - القتل صبورا: أن تحبس الشخص ثم ترميه حتى يموت.

المسلمين إلا رجلا واحدا معتمدين لقتله بلا جرم جرّه، لحل لي قتل ذلك الجيش كله!

الذين قاتلوني

من كلام له في معنى وقعة الجمل:

بليت في حرب الجمل بأشد الخلق شجاعة. وأكثر الخلق ثروة وبذلا، وأعظم الخلق في الخلق طاعة، وأوفى الخلق كيذا وتكثرا: بليت بالزبير لم يرد وجهه قط. وبيعلى بن منية يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كل رجل ثلاثين دينارا وفرسا على أن يقاتلني. وبعاثشة ما قالت قط بيدها هكذا إلا واتبعها الناس. وبطلحة لا يدرك غوره ولا يطال مكره!

بكم ذوو كلام

من خطبة له في تقرير أصحابه

بالكوفة:

ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه. أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي: استنفرتكم للجهد فلم تنفروا، وأسمنتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا. أشهود كغياب (١)

١ - شهود، جمع شاهد وهو الحاضر.

وعبيد كأرباب؟! أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم
بالموعظة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما أتى على آخر القول
حتى أراكم متفرقين أيادي سبا ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن
مواظبتكم.

أيها الشاهدة أبدانهم الغائبة عقولهم المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم
أمرأؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله
وهم يطيعونه! لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار
بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم.
يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع،
وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء ولا
ولا إخوان نقمة عند البلاء!

لا تنتقم من عدو

من كتاب له إلى عبد الله بن عباس عامله
على البصرة، وكان عباس قد اشتد على
بني تميم لأنهم كانوا مع طلحة والزبير يوم
الجمل، فأقصى كثيرا منهم، فعظم ذلك
على الإمام علي الذي يأبى قلبه الكبير
الانتقام، فكتب إلى عباس يردعه ويؤنبه
ويقرر حقيقة نتجها لها اليوم... وهي أن
رأس الدولة مسؤول هو أيضا عن أعمال
موظفيه الذين ولاهم أمور الناس... قال:

حادث أهلها بالإحسان إليهم واحلل عقدة الخوف عقدة الخوف عن قلوبهم!

وقد بلغني تنمرك لبني تميم (١) وغلظتك عليهم، فأربع (٢) أبا
العباس، رحمك الله، في ما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإننا
شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفيلن (٣) رأبي
فيك!

النساء

من خطبة له بعد حرب الجمل في ذم

النساء:

فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر. ولا تطيعوهن
في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر!
أرباب سوء

من خطبة في التحذير من بني أمية:

ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء
مظلمة. وأيم الله لتجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب

١ - تنمرك: تنكر أخلاقك.

٢ - أربع: أرفق وقف عند حد ما تعرف.

يريد الإمام أمره بالثبوت في جميع ما يعتمده فعلا وقولا من خير وشر وإلا يعجل به
لأنه شريكه به، فإنه عامله ونائب عنه.

٣ - قال رأيه: ضعف.

الضروس (١) تعذب بغيها وتخبط بيدها وتزبن برجلها (٢) وتمنع
درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم. ولا يزال بلاؤهم
حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه والصاحب من
مستصحبه (٣) ترد عليكم فتننتهم شوهاء مخشية (٤) وقطعا جاهلية!
لا مدر ولا وبر
من كلام له في بني أمية:
والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا
حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم (٥) وحتى
يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه وباك يبكي لديناه، وحتى تكون
نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا
غاب اغتابه!

-
- ١ - الناب: الناقة المسنة. الضروس: السيئة الخلق تعض حالبها
 - ٢ - تعذب: تأكل بخفاء وتعض. تزبن: تضرب.
 - ٣ - التابع من متبوعه، أي: انتصار الأذلاء، وما هو بانتصار.
 - ٤ - شوهاء: قبيحة المنظر. مخشية: مرعبة.
 - ٥ - بيوت المدر: المبنية من طين. وبيوت الوبر: الخيام.

رحب البلعوم
من كلام له لأصحابه:
أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن (١) يأكل
ما يجد ويطلب ما لا يجد! ألا وإنه سيأمركم بسببي والبراءة مني. أما السب
فسبوني، فإنه لي زكاة ولكم نجاة. وأما البراءة فلا تتبرأوا مني، فإني
ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة!
نهم الأثرياء

من كتاب له إلى معاوية، وفيه نظرة الإمام
الصائبة إلى أصحاب الثراء الذين لا يزيدهم
المال إلا نهما وحرصا على الاستزادة منه:
أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها
شيئا إلا فتحت له حرصا عليها ولهجا بها (٢). ولن يستغني صاحبها بما
نال فيها عما لم يبلغه منها. ومن وراء ذلك فراق ما جمع ونقض ما
أبرم. ولو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي، والسلام.

١ - مندحق البطن: عظيم البطن بارزه كأنه لعظمه مندلق من بدنه يكاد يبين عنه.
والواضح أن المقصود بهذا الكلام هو معاوية.
٢ - لهجا: ولوعا وشدة حرص.

مع الحق
كتب معاوية إلى الإمام علي يطلب إليه
أن يترك له الشام، فكتب إليه الإمام جواباً
جاء فيه:

فأما طلبك إلي الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس
وأما قولك (إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت) ألا
ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار. وأما
استواؤنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشك مني على اليقين!
ناقل التمر إلى هجر

من كتاب له إلى معاوية أيضاً جواباً:
أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه
لدينه، وتأيبه إياه بمن أيده من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك
عجبا إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت
في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال (١)

١ - هجر: مدينة في البحرين كثيرة النخيل. المسدد: معلم رمي السهام. النضال:
المراماة. يقول: كنت في ذلك كمن ينقل التمر إلى مصدره ويدعو معلمه في الرمي
إلى المناضلة، وهما مثلاً لناقل الشيء إلى معدنه والمتعالم على معلمه.

ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه (١) فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله (٢)، أمن بذل له نصرته فاستقعه واستكفه (٣)؟ أم من استنصره فتراخى عنه وبت المنون إليه (٤) حتى أتى قدره عليه؟ وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثا (٥)، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له. اتق الله

من كتاب له إلى معاوية أيضا:
فاتق الله ما لديك، وانظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته. وإن نفسك قد أولجتك شرا وأقحمتك غيا (٦) وأوردتك المهالك وأوعرت عليك المسالك.

-
- ١ - أي لقرابتك منه يصح الجدل معك في أمره.
 - ٢ - أعدى: أشد عدوانا. المقاتل: وجوه القتل.
 - ٣ - استقعه واستكفه: طلب إليه أن يقعد عن نصرته وأن يكف عن مساعدته. والذي بذل النصره هو الإمام. والذي استقعد الإمام واستكفه هو عثمان.
 - ٤ - المعنى هو أن عثمان استنصر بعشيرته من بني أمية كمعاوية، فخذلوه وخلوا بينه وبين الموت فكانهم أفضوا بالموت إليه.
 - ٥ - نقم عليه: عاب عليه. الأحداث: جمع حدث، وهو هنا البدعة.
 - ٦ - أولجتك: أدخلتك. أقحمتك غيا: رمت بك في الضلال.

أردت جيلا من الناس
من كتاب له إلى معاوية أيضا:
وأردت جيلا من الناس كثيرا: خدعتهم بغيك وألقيتهم في موج
بحرك تغشاهم الظلمات وتلاطم بهم الشبهات فجازوا عن وجهتهم (١)
ونكصوا على أعقابهم (٢) وتولوا على أديبارهم وعولوا على أحسابهم إلا
من فاء من أهل البصائر (٣).
خدعة الصبي

ومن كتاب له إلى معاوية جوابا:
وذكرت أني قتلت طلحة والزبير وشردت بعائشة ونزلت المصريين (٤)
وذلك أمر غبت عنه فلا عليك، ولا العذر فيه إليك.
وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخل في ما دخل فيه الناس (٥) ثم حاكم

-
- ١ - جازوا عن وجهتهم: بعدوا عن جهة قصدهم، أي كانوا يقصدون حقا فمالوا إلى باطل.
 - ٢ - نكصوا: رجعوا.
 - ٣ - علوا: اعتمدوا. أي: اعتمدوا على شرف قبائلهم فتعصبوا تعصب الجاهلية ونبذوا نصره الحق. فاء: رجع (إلى الحق)
 - ٤ - شرده: طرده وفرقه أمره. المصران: الكوفة والبصرة.
 - ٥ - ما دخل فيه الناس هو: البيعة.

القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله تعالى. وأما تلك التي تريد (١) فإنها خدعة الصبي عن اللبن (٢).

سبحان الله يا معاوية

من كتاب له إلى معاوية أيضا:

فسبحان الله! ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، مع تضييع الحقائق.

فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته (٣)، فإنك إنما نصرت عثمان

حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له (٤) والسلام؟

يغدر ويفجر

من كلام له في مسلكه ومسلك معاوية:

والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر

لكنت من أدهى الناس!

١ - تلك التي تريد: ولاية الشام. وكان الإمام يأبى أن يبقى معاوية في هذه الولاية.

٢ - خدعة يصرف بها الصبي أول فطامه عن اللبن. والمقصود هنا: ما تصرف به عدوك عن قصدك به في الحروب وما إليها من أحوال الخصومة.

٣ - الحجاج: الجدال.

٤ - نصرت عثمان بعد مقتله... حيث كان في الانتصار له فائدة لك تتخذه ذريعة لجمع الناس إلى أغراضك. أما وهو حي، وكان انتصارك له يفيد، فقد خذلته وأبطأت عنه.

ثمن البيعة
من خطبة له: ولم يبايع حتى شرط أن يؤتية علي البيعة ثمنا (١)! فلا ظفرت يد البائع،
وخزيت أمانة المبتاع. فخذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها!
أكلة الرشا
وقد ورد مثل المعنى السابق أيضا في كتاب
بعث به الإمام إلى جماعة من أصحابه. قال:
إنما تقاتلون أكلة الرشا وعبيد الدنيا والبدع والأحداث. لقد نمي إلي
أن ابن الباغية (٢) لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يأتيه أتاوة هي أعظم
مما في يديه من سلطان، فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وتربت يد
هذا المشتري نصره غادر فاسق بأموال الناس!

١ - ضمير (يبيع) يعود إلى عمرو بن العاص، فإنه شرط على معاوية أن يوليه
مصر لو تم له الأمر. وهذا ما كان بعد ذلك.
٢ - المقصود هو عمرو بن العاص.

أذهبت دنياك وآخرتك
من كتاب له إلى عمرو بن العاص يوم لحق
بمعاوية:

فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيه مهتوك ستره يشين
الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره وطلبت فضله اتباع
الكلب للضرغام (١): يلوذ إلى مخالبه وينتظر ما يلقي إليه من فضل
فريسته، فأذهبت دنياك وآخرتك! ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت. فإن
يمكنني منك ومن أبي سفيان أجز كما بما قدمتما.
لأشذن عليك

من كتاب له إلى زياد بن أبيه وهو على
البصرة:

وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً
صغيراً أو كبيراً (٢) لأشذن عليك شدة تدعك قليل الوفر (٣) ثقيل
الظهر ضئيل الأمر، والسلام.

١ - الضرغام: الأسد.

٢ - الفيء: المال من غنيمة أو خراج.

٣ - لأشذن عليك شدة: لأحملن عليك حملة. الوفر المال.

متمرغ في النعيم
ومن كتاب له إلى زياد بن أبيه أيضا:
أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين؟ وتطمع،
وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة، أن يوجب لك ثواب
المتصدقين؟ وإنما المرء مجزي بما أسلف (١) وقادم على ما قدم.
إحذر معاوية

من كتاب له إلى زياد بن أبيه أيضا وقد
بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته
باستلحاقه:

وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ويستفل غربك (٢)
فاحذره، فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه
وعن شماله، ليقتحم عليه غفلته ويستلب غرته (٣).

١ - أسلف: قدم في سالف أيامه.

٢ - يستزل: يطلب به الزلل، وهو الخطأ. الغرب: الحدة والنشاط. يستفل غربك:
يطلب ثلم حدتك.

٣ - يقتحم غفلته: يدخل غفلته بغتة فيأخذه فيها. وتشبيه الغفلة بالبيت يسكن فيه
الغافل، من روائع التشبيه. الغرة خلو العقل من ضروب الحيل، والمراد منها
العقل الغر والساذج.

الناس عندنا أسوة
من كتاب له إلى سهل بن حنيف
الأنصاري، وهو عامله على المدينة في معنى
قوم من أهلها لحقوا بمعاوية:
أما بعد، فقد بلغني أن رجالا ممن قبلك (١) يتسللون إلى معاوية
فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم، فكفى
لهم غيا ولك منهم شافيا (٢). وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه،
وعلموا أن الناس عندنا أسوة فهربوا إلى الأثرة (٣) فبعدا لهم وسحقا (٤)
إنهم والله لم ينفروا من جور ولم يلحقوا بعدل! يا أشباه الرجال
من خطبة له بعد أن غزا سفيان بن
عوف من بني غامد، بلدة الأنبار على
الشاطئ الشرقي للفرات. وقد بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق تهويلا
على أهله.

١ - قبلك: عندك.

٢ - يتسللون: يذهبون واحدا بعد واحد. غيا: ضلالا. يقول: فرارهم كاف
في الدلالة على ضلالهم. والضلال داء شديد في بنية الجماعة، وقد كان فرار هؤلاء
الضالين شفاء للجماعة من هذا الداء.

٣ - الأثرة: اختصاص النفس بالمنفعة وتفضيلها على غيرها بالفائدة

٤ - السحق، بضم السين: البعد البعيد.

وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان
 البكري وأزال خيلكم عن مسالحها (١). وقتل منكم رجالا صالحين. ولقد بلغني أن
 الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى
 المعاهدة (٢) فينتزغ حجلها (٣) وقلبها (٤) وقلائدها ورعاثها (٥) ما
 تمنع منه إلا بالاسترجاع (٦) والاسترحام ثم انصرفوا وافرین (٧) ما نال
 رجلا منهم كلم ولا أريق لهم دم. فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا
 أسفا ما كان به ملوما بل كان به جديرا. فيا عجبا، والله، يميت القلب
 ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحا
 لكم وترحا (٨) حين صرتم غرضا يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون،
 وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم
 في أيام الصيف قلت: هذه حمارة القيظ (٩) أمهلنا يسبخ عنا الحر (١٠)!
 وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلت هذه صبارة القر (١١) أمهلنا

-
- ١ - جمع مسلحة، وهي: الثغر والمرقب حيث يخشى طرق الأعداء.
 - ٢ - المعاهدة: الذمية، أي الداخلة في ذمة المسلمين وفي حمايتهم. وأهل الذمة هم أهل الكتاب من غير المسلمين.
 - ٣ - الحجل: الخلخال.
 - ٤ - القلب، بالضم، كقفل: السوار.
 - ٥ - الرعاث جمع رعثة: القرط.
 - ٦ - الاسترجاع: ترديد الصوت بالبكاء.
 - ٧ - وافرین: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.
 - ٨ - ترحا: هما وحزنا.
 - ٩ - حمارة القيظ، بتشديد الراء: شدة الحر.
 - ١٠ - يسبخ: يخفف ويسكن.
 - ١١ - صبارة الشتاء، بتشديد الراء، شدة برده. والقر: البرد، وفي كتب فقه اللغة أن (القر) هو برد الشتاء خاصة، أما (البرد) فعام فيه وفي بقية الفصول.

ينسلخ عنا البرد
! كل هذا فرارا من الحر والقر، فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال!
حلوم الأطفال، وعقول ربات
الحجال (١) لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم! معرفة والله جرت ندما
وأعقبت سدا (٢)! قاتلكم الله! لقد شحنتم صدري غيظا وأفسدتم علي
رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن طالب أبي رجل شجاع
ولكن لا علم له بالحرب!
لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني؟!
لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين (٣)
ولكن لا رأي لمن لا يطاع!!
لو ضربته بسيفي
من كلام له:
لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو
صابت الدنيا بجماتها (٤) على المنافق على أن يحبني ما أحبني!

-
- ١ - ربات الحجال: النساء.
 - ٢ - السدم: الهم مع الأسف والغيظ.
 - ٣ - ذرفت على الستين: زدت عليها.
 - ٤ - جمات، جمع حمة، بفتح الجيم، وهي من السفينة مجتمع الماء المترشح من ألواحها، أي: لو كفأت عليه الدنيا بجليها وحقيرها.

أقولاً بغير علم
من خطبة له في تأنيب المتخاذلين من
أصحابه:

أيها الناس المجتمعمة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي
الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعراء (١)! ما عزت دعوة من
دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم! أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع
أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز
بالسهم الأخبى! أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم ولا
أوعد العدو بكم! ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم!
أقولاً بغير علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعاً في غير حق؟!
لا أصلحكم بإفساد نفسي
ومن كلام له في تأنيب المتخاذلين من
أصحابه أيضاً:
كم أداريكم كما تدارى الثياب المتداعية كلما حيصت من جانب

١ - الصم، جمع أصم، وهو من الحجارة الصلب. والصلاب: الشديدة، أي تقولون
من الكلام ما يفلق الحجر بشدته وقوته، ثم يكون فعلكم من الضعف والاختلال
بحيث يطمع فيكم العدو.

تهتكت من آخر (١)! أكلما أطل عليكم منسر من مناسر (٢) أهل الشام
أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر انجحر الضبة في جحرها والضبع
في وجارها (٣)!؟! الذليل والله من نصرتموه! وإنكم والله لكثير
في الباحات قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم (٤)
ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي!
الرأي مع الأناة
من كلام له وقد أشار عليه أصحابه
بالاستعداد للحرب بعد إرساله جريرا بن
عبد الله البجلي إلى معاوية:
إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف
لأهله عن خير إن أرادوه. والرأي عندي مع الأناة.
ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه (٥) وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر

-
- ١ - المتداعية: الخلقة التمزقة. ومداراتها: استعمالها بالرفق التام.
 - ٢ - المنسر: القطعة من الجيش تمر أمام الجيش الكثير.
 - ٣ - انجحر: دخل الجحر أو الوجار
 - ٤ - أودكم: إغوجاجكم.
 - ٥ - مثل تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل.

لي إلا القتال أو الكفر (١) إنه قد كان على الناس وال أحدث أحداثا (٢)
وأوجد للناس مقالا، فقالوا ثم نقوموا فغيروا.

لقد سئمت عتابكم

من خطبة له في استنفار الناس إلى أهل

الشام:

أف لكم، لقد سئمت عتابكم! إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت
أعينكم كأنكم من الموت في غمرة (٣)، ومن الدهول في سكرة! ما أنتم
إلا كإبل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر!
تكادون ولا تكيدون، وتنقص أطرافكم فلا تمتعضون (٤)، لا
ينام عليكم وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون! وأيم الله إنني
لأظن بكم أن لو حمس الوغى واستحر الموت قد انفجرت عن ابن أبي

١ - المراد بالكفر هنا: الفسق، لأن ترك القتال تهاون بالنهي عن المنكر، وهو فسق.

٢ - يريد من الوالي الخليفة الذي كان قبله، وتلك الأحداث معروفة في التاريخ، وهي التي أدت بالقوم إلى التألب على قتله.

٣ - دوران الأعين: اضطرابها من الجزع، ومن غمره الموت يدور بصره. وغمرة الموت: الشدة التي تنتهي إليه.

٤ - تغضبون.

طالب انفراج الرأس (١). والله إن امرأ يمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه (٢) ويهشم عظمه ويفري جلده، لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره (٣). أنت فكن ذاك إن شئت (٤) فإما إنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام (٥) ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء!
بقاء الدولة

من خطبة له خطبها بصفين:

أما بعد، فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقا بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقتها في التناصف (٦)، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له.

١ - حمس: اشتد وصلب. استحر: بلغ في النفوس غاية حدته. وقوله (انفراج الرأس) يعني انفراجا لا التئام بعده، فإن الرأس إذا انفرج عن البدن أو انفرج أحد شقيه عن الآخر لم يعد للالتئام.

٢ - يأكل لحمه حتى لا يبقى منه شيء على العظم.

٣ - الجوانح: الضلوع تحت الترائب. يريد ضعيف القلب.

٤ - يمكن أن يكون خطابا عاما لكل من يمكن عدوه من نفسه. ويروى أنه خطاب للأشعث بن قيس عندما قال له (هلا فعلت فعل عثمان) فأجابه الإمام بقوله هذا

٥ - فراش الهام: العظام التي تلي القحف.

٦ - يتسع القول في وصفه حتى إذا وجب الحق على الإنسان الواصف له، فر من أدائه ولم ينتصف من نفسه كما ينتصف لها.

ثم جعل، سبحانه، من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض (١) وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية ولا يصلح الولاية إلا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، واعتدلت معالم العدل، فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليهما، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل! فهناك تذلل الأبرار وتعز الأشرار.

وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته بفوق أن يعان على ما حملة الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغرت النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه

-
- ١ - أي: لا يستحق أحد شيئاً إلا بأدائه مكافأة ما يستحقه.
 - ٢ - أي: إذا عطل الحق لا تأخذ النفوس وحشة أو استغراب لتعودها على تعطيل الحقوق وأفعال الباطل.
 - ٣ - بفوق أن يعان: بأعلى من أن يحتاج إلى الإعانة، أي: بغنى عن المساعدة.
 - ٤ - اقتحمته: احتقرته.

هنا أجابه رجل من أصحابه بكلام طويل
يكثر فيه الشناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له
فقال الإمام هذا القول الرائع:

وإن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر
ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أنني أحب
الإطراء واستماع الشناء، ولست بحمد الله كذلك، فلا تكلموني بما تكلم به
الجبابرة، ولا تتحفظوا مني يتحفظ به عند أهل البادرة (١) ولا
تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، فإنه من
استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل
عليه! فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي
بفوق أن أخطئ؟

السلم أولى

من كلام له وقد استبطأ أصحابه إذنه

لهم في القتال بصفين:

أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟! فوالله ما أبالي أدخلت إلى
الموت أو خرج الموت إلي! وأما قولكم شكنا في أهل الشام! فوالله ما

١ - البادرة: الحدة والغضب.

ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي فتتهدي بي وتعشو إلى ضوئي (١) وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها.

الوصية الشريفة

من وصية له لعسكره قبل لقاء العدو

بصفين:

لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وتركم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً (٢) ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم!

اللهم جنب المنتصر البغي

من خطبة له لما عزم على لقاء القوم بصفين:

اللهم رب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدرجاً

١ - تعشو إلى الضوء: تستدل عليه في الظلام فتتهدي إليه.

٢ - المعور: الذي أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها.

للهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى! ورب
الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادا وللخلق اعتمادا (١)، إن
أظهرتنا (٢) على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق. وإن أظهرتهم
علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة!

اللهم اصلح ذات بيننا وبينهم
من كلام له بصفين وقد سمع قوما من
أصحابه يسبون أهل الشام ردا على سب أهل
الشام إياهم:

إني أكره لكم أن تكونوا سبابين. ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم
وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان
سبكم إياهم:

اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأهدهم
من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من
لهج به (٣).

-
- ١ - اعتمادا: معتمدا، أي ملجأ يعتصمون به إذا طردتهم الغارات من السهول. وكما
أن الجبال الرواسي هي ملجأ يعتصم به الإنسان، هي أيضا للحيوانات تعتصم بها
 - ٢ - أظهرتهم: نصرتهم وجعلت لهم الغلبة
 - ٣ - الارعواء: النزوع عن الغي والرجوع عن وجه الخطأ. لهج به: أولع به فتأثر عليه.

ونطق بألسنتهم

ومن خطبة له

اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا (١) واتخذهم له أشراكا، فباض وفرخ في صدورهم، ودب ودرج في جحورهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل (٢) فعل من قد شركهم الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه.

جعلوهم حكاما على الرقاب

سأل الإمام سائل عن أحاديث البدع

عما في أيدي الناس من اختلاف

الخبر. فقال في جملة ما قال:

إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا. وقد أخبرك الله عن

المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده

- يعني النبي - فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور

والبهتان، فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاما على رقاب الناس وأكلوا

بهم الدنيا. وإنما الناس مع الملوك إلا من عصم الله!

١ - ملاك الشيء: قوامه الذي يملك به.

٢ - الخطل: أقبح الخطأ.

صنفان

ومن كلام له في محبيه ومبغضيه:

وسيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق،
ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس في حالا
النمط الأوسط فالزموه، والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة!
ومن كلامه في هؤلاء:

هلك في رجالان: محب غال، ومبغض قال.

ومن كلامه أيضا وقد توفي سهل بن
حنيف الأنصاري بالكوفة بعد رجوعه معه
من صفين، وكان من أشد أنصار الإمام

اندفاعا في سبيل الحق:

لو أحبني جبل لتهافت (١).

١ - تهافت: تساقط بعدما تصدع.

أئمة العدل

عاد الإمام العلاء بن زياد الحارثي بالبصرة، وهو من أصحابه. فلما رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى، إن شئت بلغت بها الآخرة: تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها (١) فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة!

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: علي به. فلما جاء قال: يا عدي نفسه (٢) لقد استهام بك الخبيث. أما رحمت أهلك وولدك! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك (٣)

١ - أطلع الحق مطلعاه: أظهره حيث يجب أن يظهر.

٢ - عدي، تصغير عدو.

٣ - في هذا الكلام بيان أن أطايب الدنيا لا تبعد الإنسان عن الله لطبيعتها، ولكن لسوء القصد منها.

قال عاصم: يا أمير المؤمنين ها أنت في
خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! قال
الإمام:

ويحك، إني لست كأنت. إن الله فرض على أئمة العدل أن
يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيخ بالفقير فقره (١).

لو أعطيت الأقاليم السبعة

من كلام رائع له في صفة نفسه حافظا
لأموال العامة، وذلك بعد أن أملك أخوه
عقيل بن أبي طالب فاستعطاه:

والله لأن أبيت على حسك السعدان (٢) مسهدا، وأجر في الأغلال
مصفدا، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض
العباد وغاصبا لشيء من الحطام.

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله
في نملة أسلبها جلب شعيرة (٣) ما فعلت. وإن دنياكم عندي لأهون

١ - يقدرُوا أنفسهم الخ... يقيسوا أنفسهم بالضعفاء ليكونوا قدوة للغني في الاقتصاد
وصرف الأموال في وجوه الخير ومنافع المجتمع. يتبيخ بالفقير فقره: يهيج به
ألم الفقر فيهلكه.

٢ - يريد من الحسك: الشوك. والسعدان: نبت شائك ترعاه الإبل

٣ - جلب: قشرة.

من ورقة في فم جرادة تقضمها (١)! ما لعلني ولنعم يفنى ولذة
لا تبقى. نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين.
تحركه العواصف

من كلام له يجري مجرى الخطبة:
و كنت كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف: لم يكن
لأحد في مهمز (٢) ولا لقائل في مغمز. الذليل عندي عزيز حتى آخذ
الحق له. والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه!
لولا تخمة الظالم وجوع المظلوم
من خطبة له معروفة بالشقشقية
.. إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه (٣)، وقام معه بنو أبيه
يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع (٤)، إلى أن أجهز عليه

-
- ١ - تقضمها: تكسرها بأطراف أسنانها.
 - ٢ - الهمز والغمز: الوقعة، أي: لم يكن في عيب أعاب به.
 - ٣ - يشير إلى عثمان. نافجا حضنيه: رافعا لهما، والحضن: ما بين الإبط والكشح.
يقال للمتكبر: جائنا نافجا حضنيه. ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاما.
 - ٤ - الخضم: الأكل مطلقا، أو بأقصى الأضراس.

عمله و كبت به بطنته، فما راعني إلا والناس ينثالون علي (١) من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفائي (٣) مجتمعين حولي كربيضة الغنم (٤). فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون (٥) كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)! بلى، والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها (٦). إما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر (٧) وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم (٨)، لألقيت حبلها على غاربها (٩)، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز.

-
- ١ - البطنة: البطر والأشر والتخمة والإسراف في الشبع. كبت به، من كبا الجواد إذا سقط لوجهه. ينثالون: يتتابعون مزدحمين.
 - ٢ - ولداه الحسن والحسين.
 - ٣ - شق عطفاه: خدش جانباه من الاصطكاك.
 - ٤ - ربيضة الغنم: الطائفة الرابضة من الغنم.
 - ٥ - الناكثة: أصحاب الجمل. والمارقة: أصحاب النهروان من الخوارج. القاسطون: الجائرون، وهم أصحاب صفين.
 - ٦ - الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر.
 - ٧ - يقصد من حضر لبيعته، ولزوم البيعة لذمة الإمام بحضوره.
 - ٨ - الكظة: ما يعتري الأكل من امتلاء البطن بالطعام، والمراد استثثار الظالم بالحقوق السغب: شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوق المظلوم.
 - ٩ - الغارب: الكاهل، والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر.

أهل الحيلة

من خطبة له:

إن الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جنة أوقى منه (١) ولا يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا (٢) ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة! ما لهم؟ قاتلهم الله! قد يرى الحول القلب وجه الحيلة (٣) ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين (٤)
أنت وأخوك الإنسان
من وصية له كتبها لابنه الحسن من
صفيين:

يا بني، اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك

١ - الجنة: الوقاية.

٢ - الكيس: العقل.

٣ - الحول القلب: البصير بتحويل الأمور وتقليبها

٤ - يقول: أهل هذا الزمان يعدون الغدر من العقل وحسن الحيلة.

ولكن ما لهم يزعمون ذلك مع أن البصير بتحويل الأمور وتقليبها قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده، لكنه يجد دون الأخذ به مانعا من أمر الله ونهيه، فيدع الحيلة وهو قادر عليها، خوفا من الله ووقوفا عند حدوده!

ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك. ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك.

يا بني، إياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها وتكالبهم عليها (١) فقد نبأ الله عنها ونعت لك نفسها وتكشفت لك عن مساويها فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهر بعضهم بعضا ويأكل عزيزها ذليلها ويقهر كبيرها صغيرها.

واعلم أن من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعا (٢)

أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعترض بما تبذل من نفسك عوضاً. ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، وما خير خير لا ينال إلا بشر (٣) ويسر لا ينال إلا بعسر! قارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبين عنهم. بئس الطعام الحرام، وظلم الضعيف أفحش الظلم.

إحمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة (٤) وعند صدوده

١ - إخلاد أهل الدنيا إليها: سكونهم إليها. التكالب: التواثب.

٢ - وادعا: ساكناً مستريحاً.

٣ - يريد أي خير في شيء سماه الناس خيراً وهو مما لا يناله الإنسان إلا بالشر، فإن كان طريقه شراً فكيف يكون هو خيراً؟

٤ - الصرم: القطيعة، أي: ألزم نفسك بصلة أخيك الإنسان إذا قطعك.

على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل (١)، وعند تباعده على
الذنو وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر، حتى كأنه
ذو نعمة عليك. ولن لمن غالظك (٢)
فإنه يوشك أن يلين لك، وخذ على عدوك بالفضل. وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له
من نفسك بقية

يرجع إليها إن بدا له ذلك يوما ما (٣). ومن ظن بك خيرا فصدق
ظنه. ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه فإنه ليس لك
بأخ من أضعت حقه. ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك
على صلته (٤) ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، وليس
جزاء من شرك أن تسوءه.

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى. وإن جزعت على
ما تفلت من يديك، فاجزع على كل ما لم يصل إليك. استدل على
ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة
إلا إذا بالغت في إيلامه.

١ - الجمود: البخل.

٢ - لن: أمر من (لان).

٣ - أي: استبق بقية من الصلة يسهل له معها الرجوع إليك إذا هو شاء ذلك.

٤ - أي، إذا أتى أخوك الإنسان بأسباب القطيعة فقابلها بموجبات الصلة حتى تكون
الغلبة للمودة. ولا يصح أن يكون أخوك أقدر على ما يوجب القطيعة منك على ما
ما يوجب الصلة. وهذا أبلغ قول في لزوم حفظ المودة بين الناس.

من ترك القصد جار (١). والصديق من صدق. غيبه (٢٩). رب قريب أبعد من بعيد، ورب بعيد أقرب من قريب، والغريب من لم يكن له حبيب. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الحار قبل الدار. إذا تغير السلطان تغير الزمان!

انصتوا لقولي

من كلام له قاله للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم:

أكلكم سعد معنا صنفين؟

فقالوا: منا من شهد ومنا من لم يشهد.

قال: فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صنفين فرقة، ومن

لم يشهدا فرقة، حتى أكلم كلا منكم بكلامه.

ونادى الناس: أمسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إلي، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها.

ثم كلمهم بكلام طويل، من جملة أن قال:

ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة، ومكرا وخديعة:

١ - القصد: الاعتدال. جار: مال عن الصواب.

٢ - الغيب: ضد الحضور. أي: من حفظ لك حقك وهو غائب عنك.

إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة فأقيموا على شأنكم والزموا طريقكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق: إن أجيب أضل وإن ترك ذل؟ وقد كانت هذه الفعلة، وقد رأيتكم أعطيتموها. والله لئن أبيتها ما وجبت علي فريضتها، ولا حملني الله ذنبها! ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع. وإن الكتاب لمعي. ما فارقت مذ صحبتته: فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقربات. فما نزداد على كل مصيبة وشدة لا إيمانا ومضيا على الحق وصبرا على مضض الجراح. ولكننا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج، والشبهة والتأويل. فإذا طمعنا في خصلة (١) يلم الله بها شعنا وتدانى بها إلى البقية فيما بيننا، رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها! تركا الحق وهما يبصرانه من كلام له يكشف به للخوارج الشبهة وينقض حكم الحكمين: فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي، وتأخذونهم بخطئي،

١ - الخصلة، يراد بها هنا: الوسيلة.

وتكفرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء
والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب.
لم آت. لا أبا لكم، بحرا، ولا ختلتكم عن أمركم ولا لبسته
عليكم (١)، إنما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما
ألا يتعديا القرآن، فتاها عنه، وتركا الحق وهما يبصرانه، وكان
الجور هواهما فمضيا عليه. وقد سبق استثناؤنا عليهما، في الحكومة
بالعدل والصمد للحق، سوء رأيهما وجور حكمهما (٢)
أنا نذيركم

من خطبة له في تخويف أهل النهروان (٣)
قبل أن يبدأوه القتال:

فأنا نذيركم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط (٤)
على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم: قد طوحت بكم الدار

١ - البحر: الشر والأمر العظيم والداهية. ختلتكم: خدعتكم. لبسته عليكم:
خلطته وشبهته حتى لا يعرف
٢ - الصمد: القصد.

٣ - النهروان: اسم لأسفل نهر على مقربة من الكوفة. وأهل النهروان هم الخوارج.
٤ - صرعى، جمع صريع، أي: طريح. الأهضام، جمع، هضم وهو المطمئن من
الوادي. والغائط: ما سفل من الأرض والمراد هنا منها المنخفضات. يقول:
إني أحذركم من اللجاج في العصيان فتصبحوا مقتولين مطروحين، بعضكم في
أثناء هذا النهر، وبعضكم في هذا الوادي وهذه المنخفضات.

واحتبلكم المقدار (١)، وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فأبئتم علي إباء
المخالفين المنابذين حتى صرفت رأبي إلى هواكم، وأتم معاشر أخفاء
الهام (٢) سفهاء الأحلام ولم آت، لا أبا لكم، بجرا ولا أردت
لكم ضرا.
أين العمالقة

من خطبة خطب الإمام بها الناس بالكوفة
وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن
هبيرة المخزومي، وعليه مدرعة من صوف
وحمائل سيف ليف، وفي رجليه نعلان
من ليف

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم
المعاش. فلو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما، أو لدفع الموت سبيلا،
لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام، الذي سخر له ملك الجن
والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طعمته واستكمل

١ - يقال (تطاوحت به النوى) أي: ترامت. احتبلهم: أوقعهم في حبالته. المقدار:
القدر. يقول: لقد صرتم في متاهة لا يدع الضلال لكم سبيلا إلى مستقر من
اليقين، فأنتم كمن رمت به داره وقذفته. وأنتم مقيدون للهلاك لا تستطيعون منه خروجا
٢ - الهام: الرأس. وخفة الرأس كناية عن قلة العقل.

مدته، رمته قسي الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية،
والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون. وإن لكم في القرون السالفة
لعبرة!

أين العمالقة وأبناء العمالقة! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة! أين
أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين،
وأحيوا سنن الجبارين! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف،
وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن!
أين عمار

ومن الخطبة السابقة نفسها:

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبرا،
وأزمع الترحال عباد الله الأخيار! ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم
وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص ويشربون
الرنق (١)؟ أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟
وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين (٢)؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم
الذين تعاقدوا على النية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة (٣)؟!

١ - الرنق: الكدر.

٢ - عمار: عمار بن ياسر، وكان ممن عذب هو وأبوه وأخوه وأمه في بدء الدعوة.
وابن التيهان: أبو الهيثم مالك بن التيهان، من أكابر الصحابة. ذو الشهادتين:
خزيمة بن ثابت الأنصاري، من الصحابة. وهؤلاء الثلاثة شهدوا صفين
واستشهدوا بها.

٣ - أبرد برؤوسهم: أرسلت رؤوسهم مع البريد بعد قتلهم إلى البغاة للتشفي منهم.

الكبر والتعصب والبغي
من خطبة له طويلة تسمى (القاصعة (١)):
ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه
سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في
قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي
أعقبه الله به الندامة.
فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية، فإنه منافخ الشيطان التي
خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية.
ولا تطيعوا الأديعاء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وأدخلتم في حقكم
باطلهم، وهم أساس الفسوق اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجندا
بهم يصل على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم استراقا لعقولكم
ودخولا في عيونكم ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله وموطئ
قدمه ومأخذ يده. فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من
بأس الله، واتعظوا بمثاوي حدودهم (٢) ومصارع جنوبهم. واستعينوا بالله
من لواقح الكبر (٣) كما تستعينون به من طوارق الدهر!

-
- ١ - قصع فلان فلانا: حقره. وقد سميت هذه الخطبة (القاصعة) لأن ابن أبي طالب
حقر فيها حال المتكبرين وأهل البغي.
٢ - مثاوي، جمع مثوى، بمعنى المنزل ومنازل الحدود: مواضعها من الأرض بعد
الموت. ومصارع الجنوب: مطارحها على التراب.
٣ - لواقح الكبر: محدثاته في النفوس.

ولقد نظرت فما وجدت أحدا من العاملين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء، غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علة: أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: (أنا ناري وأنت طيني!) وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: (نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذيين!) فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء بالأخلاق الرغبية والأحلام العظيمة، فتعصبوا لخالل الحمد: من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في والأرض.

واحدروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات (١) بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم.

ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث (٢) والفساد في الأرض: فأما الناكثون فقد قاتلت. وأما القاسطون فقد جاهدت (٣). وأما المارقة

-
- ١ - المثالات: العقوبات.
 - ٢ - النكث: نقض العهد.
 - ٣ - القاسطون: الجائرون على الحق.

فقد دوخت. وأما شيطان الردهة (١) فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجة صدره. وبقيت بقية من أهل البغي، ولئن أذن الله في الكرة عليهم لأدين منهم (٢) إلا ما يتشذر في أطراف البلاد البلاد تشذرا (٣).

وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم: سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمار الليل ومنار النهار (٤) لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلون (٥) ولا يفسدون: قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل.

الدنيا تطوى من خلفكم

من عهد له إلى محمد بن أبي بكر حين

قلده مصر. وفيه تذكير بأحوال الدنيا

وترغيب للولادة في أن يعدلوا ويرحموا لئلا

يعذبوا، وذلك بأروع ما تجري به ريشة

العبقرية من بيان:

وأنتم طرداء الموت: إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدر ككم،

١ - الردهة: النقرة في الجبل قد يجتمع فيها. وشيطانها ذو الشدية من رؤساء الخوارج وجد مقتولا في ردهة.

٢ - لأدين منهم: لأحققهم ثم أجعل الدولة لغيرهم.

٣ - يتشذر: يتفرق، أي: لا يفلت مني إلا من يتفرق في أطراف البلاد.

٤ - عمار، جمع عامر، أي: يعمرن الليل بالسهر للفكر والعبادة

٥ - يغلون. يخونون.

وهو أُلزم لكم من ظلكم! الموت معقود بنواصيكم (١)، والدنيا
تطوى من خلفكم، فاحذروا نارا قعرها بعيد، وحرها شديد، وعذابها
جديد، ليس فيها رحمة ولا تسمع فيها دعوة!

دستور الولاية

من رسالة كتبها للأشتر النخعي لما ولاه
على مصر وأعمالها في عهد خلافته. وهي من
جلائل رسائله ووصاياه، وأجمعها لقوانين
المعاملات المدنية والحقوق العامة والتصرفات
الخاصة في نهج الإمام. كما أنها من أروع ما
أنتجه العقل والقلب جميعا في تقرير علاقة
الحاكم بالمحكوم، وفي مفهوم الحكومة،
حتى أن الإمام سبق عصره أكثر من ألف
سنة بجملة ما ورد في هذه الرسالة - الدستور،
من إشراق العقل النير والقلب الخير.

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك
من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه
من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل
على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك
ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك

١ - النواصي، جمع ناصية، وهي: مقدم شعر الرأس.

فإن الشح بالنفس الإنصاف منها في ما أحببت أو كرهت (١). وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل (٢)، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ (٣)، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من وراك! ولا تندمن على عفوه، ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة (٤). أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعبتك (٥) فإنك إلا تفعل تظلم! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة،

-
- ١ - الشح: البخل. يقول: انتصف من نفسك في ما أحببت وكرهت، أي أبخل بها ولا تمكنها من الاسترسال في ما أحببت، واحرص على صفائها كذلك بأن تحملها على ما تكره إن كان ذلك في الحق.
 - ٢ - يفرط: يسبق الزلل، الخطأ.
 - ٣ - يؤتى على أيديهم: تأتي السيئات على أيديهم.
 - ٤ - بجح بالشئ: فرح به. البادرة: ما ييدر من الحدة عند الغضب في قول أو فعل. المندوحة: المتسع الذي يمكن المرء من التخلص.
 - ٥ - من لك فيه هوى. أي: من تميل إليه ميلا خاصا.

وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة (١). وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف (٢)، وأقل شكرا عند الإعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع، وأضعف صبيرا عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة (٣). أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر (٤)، ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة (٥) فإنهم أعوان الأئمة وإخوان

١ - يححف: يذهب. يقول للحاكم: إذا رضي عليك الخاصة وسخط عليك العامة، فلا ينفك رضا أولئك مع سخط هؤلاء. إما إذا رضي عليك العامة، وهؤلاء لا يرضيهم إلا العدل، فسخط الخاصة مغتفر.

٢ - الإلحاف، الإلحاح.

٣ - يقول: ليس هنالك من هم أثقل على الحاكم، وأقل نفعا له وأكثر ضررا عليه من خاصته والمتقربين إليه من ذوي الثروة والوجاهة يلازمونه ويلحون عليه في قضاء حاجاتهم ويرهقونه بالمسائل والشفاعات ويغتمون عن سبيله المغانم ويشرون على حساب العامة، ثم يجحدون كل ذلك ولا يساندون الحاكم أو الجمهور في نائبة أو أزمة. فهم لذلك فئة يجب على الحاكم الصالح أن ينبذها ويعتمد على العامة دون سواهم.

٤ - الوتر: العداوة: يقول: أحلل عقدة الأحقاد من قلوب الناس بالعدل فيهم وحسن السيرة معهم. واقطع السبب في عداة الناس لك بالإحسان إليهم قولاً وعملاً

٥ - البطانة: الخاصة.

الظلمة (١)، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على إثمه. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك (٢) وأقلهم مساعدة في ما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا (ذلك) من هواك حيث وقع. والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله (٣).
ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتديريا لأهل الإساءة! وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه (٤) واعلم أنه ليس شئ بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم (٥) وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم (٦)، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به

- ١ - الأثمة: جمع آثم. الظلمة: جمع ظالم.
٢ - آثرهم: أفضلهم. مرارة الحق. صعوبته. يقول: ليكن أفضل وزرائك وأعوانك في نظرك أصدقهم وأكثرهم قولا بالحق مهما كان الحق صعبا على نفسك.
٣ - رضهم: عودهم. يطروك: يطنبوا في مدحك. يبجحوك بباطل لم تفعله: يفرحوك بأن ينسبوا إليك عملا عظيما لم تكن فعلته
٤ - أي: أحسن إلى المحسن بما ألزم نفسه، وهو استحقاق الإحسان. وعاقب المسيء بما ألزم نفسه كذلك، وهو استحقاق العقاب.
٥ - ليس هنالك ما يحمل الوالي على الاطمئنان إلى أن قلوب الناس معه كالأحسان إليهم والعدل فيهم وتخفيف الأثقال عن كواهلهم. وهم في غير هذه الحال أعداء له ينتهزون الفرصة للثورة عليه، وإذا ذاك يسوء ظنه بهم.
٦ - قبلهم، بكسر ففتح: عندهم.

حسن الظن برعيتك، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده (١). وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء (٢) في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك. ول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جييا وأفضلهم حلما: ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء (٣) وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف.

وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد. وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور وقلة استئغال دولهم (٤٩). ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى

١ - البلاء: الصنع، حسنا أو شيئا.

٣ - المنافثة: المحادثة.

٣ - ينبو: يشتد ويعلو. يأمر الحاكم بأن يولي من جنوده من لا يضعف أمام الأقوياء والأثرياء والنافذين بل يعلو عليهم ويشتد ليمنعهم من ظلم الضعفاء والفقراء والبسطاء. الحيطه، بكسر الخاء: مصدر (حاط) بمعنى: صان وحفظ، يقول: إن مودة الرعية لا تظهر ونصيحتهم لا تصح إلا بقدر ما يرغبون في المحافظة على ولاتهم ويحرصون على بقائهم ولا يستثقلون مدة حكمهم.

غيره (١)، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما. ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيك في نفسك (٢) ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم (٣) ولا يتمادى في الزلة، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه (٤) وأوقفهم في الشبهات (٥) وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاع الحق، ممن لا يزدنيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه (٦) وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارا، ولا تولهم محاباة

-
- ١ - لا تنسب صنيع امرئ إلى غيره.
 - ٢ - انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.
 - ٣ - تمحكه: تغضبه.
 - ٤ - لا يكتفي بما يبدو له بأول فهم وأقربه. بل يتأمل ويدرس حتى يأتي على أقصى الفهم وأدناه من الحقيقة.
 - ٥ - الشبهات، جمع شبهة، وهي ما لا يتضح الحكم فيها بالنص، فينبغي العمل لرد الحادثة التي ينظر فيها إلى أصل صحيح.
 - ٦ - أي: تتبع قضائه بالاستكشاف والتعرف.

وأثرة فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة (١). ثم تفقد أعمالهم
وابعث العيون (٢) من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في
السر لأموهم حدوة لهم (٣) على استعمال الأمانة والرفق بالرعية. وتحفظ
من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه (٤)
عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة في بدنه،
وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة،
وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم
صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم
عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من
نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب
الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا.
ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك
في عمارة بلادك.
وإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من

-
- ١ - أي: ولهم الأعمال بالاختبار والتجربة، لا ميلا منك لمعاونتهم ولا استبدادا
منك برأيك، فإن المحاباة والأثرة يجمعان الظلم والخيانة معا
٣ - العيون: الرقباء.
٣ - حدوة: سوق وحث.
٤ - اجتمعت عليها أخبار عيونك: اتفقت عليها أخبار رقبائك.

إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاية على الجمع
وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.
ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم، ممن لا يجهل مبلغ
قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل
ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك (٢) وحسن الظن
منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاية بتصنعهم وحسن خدمتهم (٣)،
وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. مهما كان في كتابك من
عيب فتغايبت عنه ألزمته (٤٩).

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا: المقيم منهم
والمضطرب بماله (٥)، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وتفقد
أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم
ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات، وذلك
باب مضرة للعامة وعيب على الولاية، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى

١ - إشراف أنفس الولاية على الجمع: تطلعهم إلى جمع المال وادخاره لأنفسهم
طمعا وجشعا.

٢ - الفراسة: قوة الظن وإدراك الباطن من النظر في الظاهر. الاستنامة: الاطمئنان إلى
حسن الرأي. أي: لا يكن اختيارك للكتاب متأثرا بميلك الخاص وفراستك التي
قد تخطئ.

٣ - أي يخدمون الولاء بما يطيب لهم توسلا إلى حسن ظن هؤلاء بهم

٤ - إذا تغايبت عن عيب في كتابك كان ذلك العيب لاصقا بك.

٥ - المتردد بأمواله بين البلدان.

الله عليه منع منه. وليكن البيع بيعا سمحا: بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (١) فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه في غير إسراف (٢).
ثم يتحدث الإمام في رسالته هذه إلى مالك الأشر عن الطققة المعوزة فيقول:

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر (٣) فإنك لا تعذر بتضييعك التافه (٤) لإحكامك المهم، فلا تشخص همك عنهم (٥٩) ولا تصعر خدك لهم (٦) وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون (٧) وتحقره الرجال، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهد

-
- ١ - المبتاع: المشتري.
 - ٢ - قارف: خالط. الحكرة: الاحتكار. نكل به: أوقع به العذاب عقوبة له. يقول: من احتكر بعد النهي عن الاحتكار عاقبه لكن من غير إسراف في العقوبة يتجاوز عن حد العدل فيها.
 - ٣ - البطر: طغيان النعمة.
 - ٤ - يقول: لا عذر لك بإهمالك القليل إذا أحكمت الكثير.
 - ٥ - لا تشخص همك عنهم: لا تصرف همك عنهم.
 - ٦ - صعر خده: أماله عن النظر إلى الناس تهاونا وكبرا.
 - ٧ - تقتحمه العيون: تكره أن تنظر إليه احتقارا.

أهل اليتيم وذوي الرقة في السن (١) ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاية ثقيل، والحق كله ثقيل!
واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك وأعوانك (٢) من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع (٣) فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن (٤): (لن تقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع!)
ثم احتمل الخرق منهم والعي (٥) ونح عنهم الضيق والأنف (٦) ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك. ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تخرج به صدور أعوانك (٧). وأمض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه.

-
- ١ - ذوو الرقة في السن: المتقدمون فيه.
 - ٢ - أي: تأمر بأن يقعد عنهم جندك وأعوانك وبألا يتعرضوا لهم
 - ٣ - التعتعة في الكلام: التردد فيه من عجز وعي، أو من خوف
 - ٤ - في مواطن كثيرة.
 - ٥ - الخرق: العنف. العي: العجز عن النطق. أي: لا تضجر من هذا ولا تغضب من ذلك
 - ٦ - الأنف: الاستنكاف والاستكبار.
 - ٧ - تخرج: تضيق. يقول: إن الأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات، ويحبون المماطلة في قضائها، استجلابا للمنفعة أو إظهار للجبروت.

ولا تطولن احتجاجك عن رعيتك، فإن احتجاج الولاة عن الرعية
شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور. والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم
ما احتجوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن
ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما
تواري عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات (١) تعرف
بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ
سخت نفسه بالبذل في الحق ففيم احتجاجك (٢٩) من واجب حق تعطيه
أو فعل كريم تسديه؟ أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك
إذا أيسوا من بذلك (٣)، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة
فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة.
ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استثثار وتناول، وقلة إنصاف في
معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال (٤٩) ولا تقطعن
لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة (٥) ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة
تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على

١ - سمات: علامات.

٢ - لأي سبب تحتجب عن الناس في أداء حقهم، أو في عمل تمنحهم إياه؟

٣ - يقول: وإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك، فلا حاجة
للاحتجاج.

٤ - احسم: اقطع. يقول: اقطع مادة ضرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم،
وإنما

يكون ذلك بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامة.

٥ - الاقطاع: المنحة من الأرض. القطيعة: الممنوح منها. الحامة، كالطامة: الخاصة
والقراية. الاعتقاد: الامتلاك. العقدة: الضيعة.

غيرهم فيكون مهناً ذلك (١) لهم دونك، وعييه عليك في الدنيا والآخرة.
وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما ينقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة (٢).
وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر (٣) لهم بعذرک، واعدل عنك ظنونهم بإصهارك فإن في ذلك رياضة منك لنفسك (٤) ورفقا برعيتك وإعدارا (٥) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق.
ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا. فأن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك. وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت (٦) ولا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك

،

-
- ١ - المهناً: المنفعة الهنيئة.
 - ٢ - المغبة: العاقبة، يقول: إن إلزام الحق لمن لزمهم، وإن ثقل على الوالي وعليهم محمود العاقبة يحفظ الدولة.
 - ٣ - الحيف: الظلم. أصحر بهم: أبرز لهم.
 - ٤ - رياضة منك لنفسك: تعويدا لنفسك على العدل.
 - ٥ - الإعدار: تقديم العذر أو إبداءه.
 - ٦ - أصل معنى الذمة: وجدان مودع في جبلة الإنسان ينهه لرعاية حق ذوي الحقوق ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها، ثم أطلقت على معنى العهد. الجنة: الوقاية. يقول: حافظ بروحك على ما أعطيت من العهد.

ولا تختلن (١) عدوك. ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل (٢) ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق (٣).
ولا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيه وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمدا! وإياك والمن على رعيتك بإحسانك، أو التزيد في ما كان من فعلك (٤) أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس. وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها (٥) أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل أمر موقعه.

- ١ - خاس بعهدده: خانه ونقضه. الختل: الخداع.
٢ - العلل: جمع علة وهي في النقد والكلام بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته.
٣ - لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض. يقول: إذا رأيت ثقلا من التزام العهد فلا تركز إلى لحن القول لتتملص منه، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك.
٤ - التزيد: إظهار الزيادة في الأعمال والمبالغة في وصف الواقع منها في معرض الافتخار.
٥ - التسقط: يريد به هنا: التهاون.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة (١)، والتعابي عما تعنى به مما قد
وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية
الأمور وينتصف منك للمظلوم. إملك حمية أنفك (٢) وسورة حدك
وسطوة يدك وغرب لسانك (٣) واحترس من كل ذلك بكف البادرة (٤) وتأخير
السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار.
والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة
أو سنة فاضلة، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا،
واستوثقت به من الحجة لنفسك عليك، لكي لا تكون لك علة عند تسرع
نفسك إلى هواها. وأنا أسأل الله أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من
الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه (٥).

١ - احذر أن تخص نفسك بشئ تزيد به عن الناس، وهو مما تجب فيه المساواة من
الحقوق العامة.

٢ - أي: أملك نفسك عند الغضب.

٣ - السورة: الحدة: والحد: البأس. والغرب: الحد، تشبيها للسان بحد السيف ونحوه.

٤ - البادرة: ما ييدر من اللسان عند الغضب، وإطلاق اللسان يزيد الغضب اتقادا.
والسكون يطفى من لهبه.

٥ - يريد من العذر الواضح: العدل، فإنه عذر لك عند من قضيت عليه، وعذر
عند الله في من أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

حدود الضريبة
من وصية كان الإمام يكتبها لمن يستعمله على
الصدقات، وهي تزخر بحنان الحاكم -
الأب - على أبنائه، وتصلح لأن تدخل في
دستور الدولة المثالية التي يحلم بها صفوة الخلق
إذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض
إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية
لهم (١)، ثم تقول:
عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في
أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟
فإن قال قائل: لا! فلا تراجع. وإن أنعم لك منعم (٢) فانطلق معه
من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه (٣)! فخذ ما أعطاك من
ذهب أو فضة. فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه. فإذا أتيتها
فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة
ولا تفرعنها ولا تسوءن صاحبها فيها. واصدع المال صدعين (٤) ثم خيره:

-
- ١ - أخذت السحابة: قل مطرها.
 - ٢ - أنعم لك منعم، أي: قال لك: نعم.
 - ٣ - تعسفه: تأخذه بشدة. ترهقه: تكلفه ما يصعب عليه.
 - ٤ - أي: اقسمه قسمين.

فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره. فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه. فإن استقالك فأقله (١) ثم اخلطهما، ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله في ماله. السفهاء والتجار

من كتاب بعث به الإمام إلى أهل مصر مع مالك الأشر لما ولاه إمارتها:

إني والله لو لقيتهم واحدا وهم طلاع الأرض كلها (٢) ما باليت ولا استوحشت. وإني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعلى بصيرة من نفسي ويقين من ربي، ولكني آسى (٣) أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا (٤) والصالحين حربا والفساقين حزبا، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم، وجمعكم وتحريضكم!

- ١ - أي: فإن ظن في نفسه سوء الاختيار وأن ما أخذت منه من الزكاة أكرم مما في يده، وطلب الإعفاء من هذه القسمة، فاعفه منها. واخلط، وأعد القسمة.
- ٢ - الطلاع: ملء الشيء يقول: لو كنت واحدا وهم يملأون الأرض للقيتهم غير مبال بهم. والضمير يعود هنا على خصومه ومحاربيه من وجهاء ذلك الزمان.
- ٣ - آسى، أحزن.
- ٤ - دولا، جمع دولة (بالضم): أي شيئا يتداولونه بينهم ويتصرفون به في غير حق الله. الخول: العبيد.

المرتشي في الحكم

ومن كلام له:

أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشعبة، الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم! أظأركم على الحق (١) وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوغة الأسد! هيهات أن أطلع بكم سرار العدل (٢) أو أقيم

اعوجاج الحق

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شئ من فضول الحطام، ولكن لند المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك.

وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي البخيل فتكون في أموالهم نهمة ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول (٣) فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق. (*)

١ - أظأركم: أعطفكم.

٢ - سرار، في الأصل: آخر ليلة من الشهر، والمراد هنا: الظلمة. أي: أن أطلع بكم شارفا يكشف عما عرض على العدل من الظلمة.

٣ - الحائف: الجائر الظالم والدول، جمع دولة - بالضم - وهي المال. وقد سمي المال (دولة) لأنه يتداول، أي ينتقل من يد ليد.

مع المظلوم
من كلام له:
إني أريدكم لله وأنتم تريدوني لأنفسكم! أيها الناس، أعيونني على أنفسكم
وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتة (١)
حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها!
المال للناس
من كلام رائع كلم به عبد الله بن زمعة
وهو من أنصاره، وذلك إنه قدم عليه في
خلافته يطلب منه مالا. فقال:
إن هذا المال ليس لي ولا لك! وجناة أيديهم (٢) لا تكون لغير
أفواههم!

١ - الخزامة: حلقة من شعر تجعل في وتره أنف البعير ليشد فيها الزمام ويسهل قياده.
٢ - أي: جناة أيدي العامة.

أمانة

من كتاب له إلى الأشعث بن قيس عامله
على آذربيجان:

وإن عملك ليس لك بطعمة (١) ولكنه في عنقك أمانة.
ليس لك أن تفتتات في رعية (٢)، وفي يدك مال من مال الله عز وجل،
وأنت من خزانة حتى تسلمه إلي، ولعلي أن لا أكون شر ولاتك (٣)
والسلام

لأضربنك بسيفي

من كتاب له إلى بعض عماله وقد
اختطف ما قدر عليه من أموال الأمة
وهرب إلى الحجاز:

فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة
واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف

١ - عملك: ما وليت لتعمله في شؤون الأمة. طعمة: المأكلة والمكسب.

٢ - تفتتات: تستبد.

٣ - يرجو أن لا يكون شر المتسلطين عليه. ولا يحق الرجاء إلا إذا استقام.

الذنب الأزل دامية المعزى الكسيرة (١) فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه (٢).

كيف تسبخ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما؟
فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله
منك لأعذرن إلى الله فيك (٣) ولأضربك بسيفي الذي ما ضربت به
أحدا إلا دخل النار! والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما
عندي

هوادة (٤) ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيل الباطل عن
مظلمتهما!

الوالي والرشوة
من كتاب له إلى عثمان بن حنيف
الأنصاري، وهو عامله على البصرة
وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها
فمضى إليها:

أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة

١ - الأزل: السريع الجري. الكسيرة: المكسورة.

٢ - التأثم: التحرز من الإثم، وهو الذنب.

٣ - أي: لأعاقبك عقابا يكون لي عذرا عند الله من فعلتك هذه.

٤ - الهوادة: الصلح، أو الاختصاص بالميل.

دعاك إلى مآذبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان (١)
وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو (٢) وغنيهم مدعو.
ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه (٣)، ومن طعمه
بقرصيه! ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع
واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنت من دنياكم تبرا، ولا
ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت
من أرضها شبرا. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب
هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني
جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في
القرص (٤) ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثي
وأكباد حري (٥)؟ أو أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم
في مكاره الدهر؟! وكأني بقائلكم يقول: (إذا كان هذا قوت ابن
أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان؟)
ألا وإن الشجرة البرية أصلب عودا، والروائع الخضرة أرق جلودا،
والنباتات البرية أقوى وقودا وأبطأ خمودا! والله لو تظاهرت العرب
على قتالي لما وليت عنها!

-
- ١ - تستطاب: يطلب لك طيبها. الألوان: أصناف الطعام. الجفان، جمع جفنة، وهي: القصعة.
٢ - عائلهم: فقيرهم ومحتاجهم. مجفو: مطرود من الجفاء.
٣ - الطمر: الثوب الخلق.
٤ - القرص: الرغيف.
٥ - غرثي: جائعة. حري: عطشى.

الوالي والهوى
من كتاب له إلى الأسود بن قتيبة
صاحب جند حلوان، وهي إيالة من إيالات
فارس:

أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه (١) منعه ذلك كثيرا عن العدل.
فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من
العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله (٢).

واعلم أنه لن يغنيك عن الحق شيء أبدا، ومن الحق عليك حفظ
نفسك، والاحتساب على الرعية بجهدك (٣).

إخفض جناحك

من كتاب له إلى بعض عماله:

واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك وألن لهم جانبك،

١ - اختلف الهوى: جرى مع أغراض النفس حيث تذهب. ووحدة الهوى:

توجهه إلى أمر واحد، وهو إجراء العدالة.

٢ - أي: ما لا تستحسن مثله لو صدر من غيرك.

٣ - الاحتساب على الرعية: مراقبة أعمالها وتقويم ما اعوج منها وإصلاح ما فسد.

وأس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية (١) حتى لا يطمع العظماء
في حيفك (٢) ولا ييأس الضعفاء من عدلك:

علم الجاهل

من كتاب له إلى قثم بن العباس، وهو
عامله على مكة:

علم الجاهل وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك
ولا حاجب إلا وجهك. ولا تحجبن ذا حاجة عن لقاءك بها فإنها
إن زيدت عن أبوابك في أول ورودها لم تحمد فيما بعد على
قضائها (٣).

وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك (٤)
من ذوي العيال والمجاعة مصيبا به مواضع الفاقة، وما فضل عن ذلك فاحمله
إلينا لنقسمه في من قبلنا.
ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا...

١ - أس بينهم: شارك وسو بينهم.

٢ - الحيف: الظلم.

٣ - زيدت: دفعت ومنعت. الورد: الورد. يقول: إذا منعت الحاجة أول
ورودها لا تحمد على قضائها فيما بعد، لأن حسنة القضاء لا تذكر في جانب
سيئة المنع.

٤ - قبلك: عندك.

الوالي الخائن
من كتاب له إلى المنذر بن الجارود
العبدى، وقد خان في بعض ما ولاه من
أعماله: ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير
منك (١). ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغراً، أو ينفذ به
أمر، أو يعلى له قدر، أو يشرك في أمانة أو يؤمن على خيانة (٢) فأقبل
إلى حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله.
الأخلاق الكريمة

من كتاب له إلى الحارث الهمداني
واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية. واحذر
كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر منه. ولا تحدث الناس

١ - الحمل يضرب به المثل في الذلة والجهل. الشسع: سير بين الإصبع الوسطي والتي
تليها في النعل، كأنه زمام
٢ - أي: على دفع خيانة.
ملاحظة: قال الشريف الرضي: والمنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير
المؤمنين عليه السلام: إنه لنظار في عطفه، مختال في برديه!

بكل ما سمعت به فكفى بذلك كذبا. ولا ترد على الناس كل ما حدثوك
به فكفى بذلك جهلا. وتجاوز عند المقدرة واحلم عند الغضب واصفح مع
الدولة (١)

وإياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق. واحذر الغضب فإنه
جند عظيم من جنود إبليس!
أهل الجشع وأهل الفقر
من خطبة له في أهل الجشع وأهل الفاقة.
وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إديارا، والشر فيه إلا
إقبالا، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعا.
اضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقرا،
أو غنيا بدل نعمة الله كفرا؟ أين أختياركم وصلحاؤكم، وأحراركم
وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم؟ والتمتزهون في مذاهبهم؟ أليس
قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا؟ وهل خلقتكم إلا في حثالة (٢) لا تلتقي
بذمهم الشفتان استصغارا لقدرهم وذهابا عن ذكرهم. لعن الله
الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به!

١ - أي عندما تكون لك السلطة.

٢ - الحثالة: الردئ من كل شيء والمراد هنا أدياء الناس وصغار النفوس منهم.

القاضي الجاهل
من كلام له في صفة من يتصدى
للحكم بين الناس وهو ليس أهلاً لذلك.
حتى إذا ارتوى من آجن واكتنز من غير طائل (١)
جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره (٢). فإن نزلت به إحدى
المبهمات

هياً لها حشوا رثا من رأيه. ثم قطع به (٣)، فهو من لبس الشبهات
في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد
أخطأ. وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب (٤)
جاهل خباط جهالات (٥)، يذرو الروايات كما تذرو الريح الهشيم (٦).

-
- ١ - الماء الآجن: الفاسد المتغير الطعم واللون. شبه الإمام مجهولات القاضي التي يظنها معلومات، بالماء الآجن. اكتنز: جمع ما عده كنزاً. غير طائل: دون وخسيس
 - ٢ - التخليص: التبيين. التبس على غيره: اشتبه عليه.
 - ٣ - المبهمات: المشكلات. الحشو: الزائد الذي لا فائدة فيه. الرث، الخلق البالي
 - ٤ - الجاهل بالشئ: من ليس على بينة منه فإذا أثبتته عرضت له الشبهة في نفيه وإذا نفاه عرضت له الشبهة في إثباته. فهو في ضعف حكمه في مثل نسج العنكبوت ضعفاً، ولا بصيرة له في وجوه الخطأ والإصابة. وقد جاء الإمام في تمثيل حاله بأبلغ ما يكون من التعبير عنه، كما يقول ابن أبي الحديد.
 - ٥ - خباط: صيغة مبالغة من خبط الليل، إذا سار فيه على غير هدى. وقد شبه الإمام الجهالات بالظلمات التي يخبط فيها السائر.
 - ٦ - الهشيم: ما يبس من النبت وتفتت. تذرو الريح الهشيم، تطيره فتفرقه وتمزقه.

لا يحسب العلم في شئ مما أنكره ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهبا
لغيره، وأن أظلم أمر اكنتم به لما يعلم من جهل نفسه (١) تصرخ
من جور قضائه الدماء وتعج منه المواريث (٢). إلى الله أشكو من معشر
يعيشون جهالا ويموتون ضلالا ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا
تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا
حرف عن مواضعه (٣)، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف
من المنكر. يحكم برأيه

من كلام له في بعض القضاة أيضا:

ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه. ثم
ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه. ثم يجتمع القضاة
بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا... (٤) وإلهم
واحد، ونيهم واحد، وكتابهم واحد!

١ - اكنتم به: كتمه وستره.

٢ - تعج: تصرخ. وصراخ الدماء وعج المواريث تمثيل لحدة الظلم وشدة الجور.

٣ - إذا تلي حق تلاوته: إذا أخذ على وجهه وفهم على حقيقته. والكتاب هو القرآن
الكريم

٤ - استقضاهم: ولاهم القضاء. يصبوب آراءهم جميعا: يفتي بأن آراءهم جميعا
صائبة...

وعالمهم منافق
من كلامه في وصف أبناء زمانه:
واعلموا أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق
كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، فتاهم
عارم (١) وشائبهم آثم وعالمهم منافق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم
ولا يعول غنيهم فقيرهم!
يعملون في الشبهات
من خطبة له:
وما كل ذي قلب بلييب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ناظر
ببصير، فيا عجبي، وما لي لا أعجب، من خطأ هذه الفرق على اختلاف
حججها في دينها! يعملون في الشبهات ويسيروا في الشهوات
المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا (٢).
مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم

١ - شرس: سي الخلق.
٢ - أي: يستحسنون ما بدا لهم استحسانه، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون
رجوع إلى دليل بين أو شريعة واضحة.

كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات
وأسباب محكمات (١).

زجر النفس

من خطبة له:

عباد الله، زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا،
وتنفسوا قبل ضيق الخناق وانقادوا قبل عنف السياق (٢) واعلموا أنه
من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من
غيرها زاجر ولا واعظ!

إياك

من كلام له لابنه الحسن

يا بني إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفحك فيضرك. وإياك
ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج (٣) ما تكون إليه. وإياك ومصادقة
الفاجر فإنه يبيعك بالتافه (٤). وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب:
يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب!

١ - يثق كل منهم بخواطر نفسه كأنه أخذ منها بالعمى الوثقى، على ما بها من جهل
ونقص.

٢ - أي: انقادوا إلى ما يطلب منكم بالحث الرفيق قبل أن تساقوا إليه بالعيث الشديد.

٣ - أحوج: حال من الكاف في (عنك)

٤ - التافه: القليل.

الرضا والسخط

من كلام له:

أيها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإنّ الناس اجتمعوا

على مائدة شبعها قصير (١) وجوعها طويل!

أيها الناس، إنّما يجمع الناس الرضا والسخط.

أيها الناس، من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف

وقع في التيه.

النفاق والظلم

من خطبة له:

ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها (٢٩). وإنّ لسان المؤمن من وراء
قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه (٣)، لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلم

١ - يقصد: الدنيا.

٢ - تهزيع الشيء: تكسيره. والصادق إذا كذب فقد انكسر صدقه، والكريم إذا

لؤم فقد انثلم كرمه. وتصريف الأخلاق: تقليبها بين حال وحال:

٣ - أي إنّ لسان المؤمن تابع لاعتقاده لا يقول إلا ما يعتقد. والمنافق يقول ما ينال به

غايته الخبيثة، فإذا قال شيئاً اليوم ينقضه غداً، فيكون قلبه تابعاً للسانه.

بكلام تدبره في نفسه: فإن كان خيرا أبداه، وإن كان شرا واره (١).
وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه!
وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا. وإن جماعة
في ما تكرهون من الحق خير من فرقة في ما تحبون من الباطل (٢)! طوبى
لمن شغله عييه عن عيوب الناس، فكان من نفسه في شغل والناس منه
في راحة! العشيرة

من خطبة له

أيها الناس، إنه لا يستغني الرجل، وإن كان ذا مال، عن عشيرته
ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه
وألهم لشعته (٣) وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به.

ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة
وتقبض منهم عنه أيد كثيرة!

١ - واره: أخفاه.

٢ - أي: من يحافظ على نظام الألفة والاجتماع، وإن ثقل عليه أداء بعض حقوق الجماعة
وشق عليه ما تكلفه به من الحق، فذلك هو الجدير بالسعادة، دون من يسعى
للشقاق وهدم نظام الجماعة، وإن نال بذلك حقا باطلا وشهوة وقتية، فقد يكون
في حظه الوقتي شقاؤه الأبدي، ذلك لأنه متى كانت الفرقة أصبح كل واحد
عرضة لشور سواه، فولت الراحة وفسدت حال المعيشة.

٣ - الحيطة: الرعاية. والشعث: التفرق والانتشار.

طبائع الإنسان

من كلام له في طبائع الإنسان:

وله (١) مواد الحكمة وأضداد من خلافها: فإن سرح له الرجاء أذله
الطمع. وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص. وإن عرض له الغضب اشتد به
الغيظ. وإن أسعده الرضا نسي التحفظ (٢). وإن ناله الخوف شغله الحذر.
وإن اتسع له الأمن استلبته الغرة (٣) وإن أفاد مالا أبطره الغنى (٤)
وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع. وإن عضته الفاقة شغله البلاء. وإن
جهده الجوع قعد به الضعف. وإن أفرط به الشبع كظته البطنة (٥)
فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد!

الزمان وأهله

ومن بديع قوله

إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر

١ - أي للقلب.

٢ - التحفظ: التوقي والتحرز من المضرات.

٣ - الغرة: الغفلة. سلبته: ذهبته به عن رشده.

٤ - أفاد: استفاد.

٥ - كظته: كربتته وآلمته. البطنة: امتلاء البطن حتى يضيق النفس.

منه خزية (١) فقد ظلم! وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل
الظن برجل فقد غرر (٢)!

كم من صائم

من كلامه في معنى الصوم والصلاة:

كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ. وكم من قائم (٣)

ليس له من قيامه إلا السهر العناء. حبذا نوم الأكياس وإفطارهم!

أصناف الناس

من خطبة له في سوء طباع الناس بزمانه:

أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود (٤) يعد

فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم عتواً، لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل

عما جهلنا ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا (٥). فالناس على أربعة أصناف:

١ - الخزية: البلية تصيب الإنسان فتذله وتفضحه

٢ - غرر: أوقع بنفسه في الغرر، أي الخطر.

٣ - أي: قائم للصلاة.

٤ - العنود: الجائر. الكنود: الكفور.

٥ - القارعة: الخطب.

منهم من لا يمنعهم الفساد إلا مهانة نفسه وكلاله حده ونضيض وفره (١).
ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشره، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام
ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه (٢). ولبئس المتجر أن
ترى الدنيا لنفسك ثمنا. ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة. ولا يطلب
الآخرة بعمل الدنيا: قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من
ثوبه وزحرف من نفسه للأمانة. واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية
ومنهم من أبعد عنه طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه، فقصرته
الحال على حاله فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة! وبقي رجال غض
أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف
المحشر، فهم بين شريد ناد وخائف مقموع وساكت مكعوم وداع
مخلص وثكلان موجه (٣). قد أحملتهم التقية (٤) وشملتهم الذلة.

- ١ - أي: لا يقعه بهم عن طلب الإمارة والسلطان إلا حقارة نفوسهم وضعف سلاحهم
وقلة مالهم.
٢ - أصلت السيف، امتشقه. أشرط نفسه: هيأها وأعدّها للشر والفساد في الأرض.
أوبق دينه، أهلكه. الحطام، هنا: المال ينتهزه: يعتنمه أو يختلسه. المقنب:
طائفة من الخيل وإنما يطلب قود المقنب تعززا على الناس وكبرا. فرع
المنبر: علاه.
٣ - ناد، هارب من الجماعة إلى الوحدة. المقموع: المقهور. المكعوم، من كعم
البعير، أي شد فاه لئلا يأكل أو يعض. الثكلان، الحزين
٤ - أحمله، أسقط ذكره حتى لم يبق له بين الناس نباهة. التقية: اتقاء الظلم
بإخفاء الحال.

وقد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قتلوا. فاتعظوا
بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة
فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم!

مع كل ريح

ومن كلامه في ناس زمانه:

همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور
العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

رب صغير غلب كبيرا

من كلام له:

إحذر الكلام في مجالس الخوف، فإن الخوف يذهل العقل الذي منه
تستمد، ويشغله بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي تروم نصرته.
واحذر الغضب ممن يحملك عليه، فإنه مميت للخواطر مانع من التثبت.
واحذر المحافل التي لا إنصاف لأهلها في التسوية بينك وبين خصمك في
الإقبال والاستماع، ولا أدب لهم يمنعهم من جور الحكم لك وعليك.
واحذر كلام من لا يفهم عنك فإنه يضجرك. واحذر استصغار الخصم فإنه
يمنع من التحفظ، ورب صغير غلب كبيرا!.

سراجہ باللیل القمر
ومن خطبة له تحتوي قولاً رائعاً في محمد
والمسيح:

وقد كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم كاف لك في الأسوة ودليل
على ذم الدنيا وعيوبها، وكثرة مخازيها ومساوئها إذ قبضت عنه
أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم عن رضاعها وزوي عن زخارفها.
وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسد الحجر
ويلبس الخشن، وكان إدامه الجوع وسراجہ باللیل القمر، وظلاله في
الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض
للبهائم. ولم تكن له زوجة تفتنه ولا مال يلفته ولا طمع يذله،
دابته رجلاه وخادمه يداه.

على منهاج المسيح
قال نوف البكالي: رأيت أمير المؤمنين
عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه
فنظر في النجوم، فقال لي: يا نوف، أراقد.

أنت أم رامق؟ فقلت: بل رامق (١).
قال:

طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا
الأرض وترابها فراشا وماءها طيبا والقرآن شعارا والدعاء دثارا
ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح!
إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال: إنها ساعة
لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له إلا أن يكون عشارا أو عريفا أو
شرطيا (٢).

لا تقولوا بما لا تعرفون
من خطبة له في صفة الخيرين:
عباد الله، إن من أحب عباد الله إليه عبدا قد ألزم نفسه العدل فكان
أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير
غاية إلا أمها (٣) ولا مظنة إلا قصدها (٤).
أيها الناس، لا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق في ما تنكرون!
وأعذروا من لا حجة لكم عليه!

-
- ١ - أراد ب (الرامق) منتبه العينين، في مقابلة الراقد بمعنى النائم.
٢ - العشار: من يتولى أخذ أعشار الأموال، وهو المكاس. والعريف: من يتجسس
على أحوال الناس وأسرارهم فيكشفها لأمرهم، مثلا. الشرطة: أعوان الحاكم. ٣ - أمها: قصدها.
٤ - المظنة: موضع ظن لوجود الخير.

منطقهم الصواب ومشيههم التواضع
روي أن صاحباً لابن أبي طالب يقال له
(همام) قال له: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم! فتناقل
الإمام عن جوابه قليلاً، ثم قال في صفة
المتقين قولاً رائعاً كثيراً، هذا بعضه:
أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن
طاعتهم آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا
ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معاشهم ووضعهم من الدنيا
مواضعهم، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب
وملبسهم الاقتصاد ومشيههم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم
الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم
في البلاء كما نزلت في الرخاء (١)، ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم
تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين.
لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم

١ - أي إنهم إذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل في الله كأنهم في رخاء لا يجزعون ولا
ينهون، وإذا كانوا في رخاء كانوا من خوف الله وحذر النعمة كأنهم في بلاء،
لا يبطرون ولا يتجبرون.

متهمون، ومن أعمالهم مشفقون (١)، إذا زكي أحدهم (٢) خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي مني بنفسي. اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون!

فمن علامة أحدهم: أنك ترى له حزما في لين، وإيمانا في يقين، وقصدا في غنى (٣) وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع (٤). يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون. يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه، بعيدا فحشه لينا قوله حاضرا معروفا، لا يحيف على من ييغض ولا يآثم في من يحب. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه. لا يبايز بالألقاب (٥) ولا يضار بالجار ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق. نفسه منه في عناء والناس منه في راحة. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة. ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخدعة.

١ - أي: خائفون من التقصير فيها.

٢ - زكي: مدحه أحد.

٣ - قصدا: اقتصادا.

٤ - التحرج، هنا: التباعد.

٥ - أي: لا يدعو غيره باللقب الذي يكرهه ويشمئز منه.

المنافقون

ومن خطبة له يصف فيها المنافقين:

يتلونون ألوانا ويفتنون افتنانا (١). لهم بكل طريق صريع (٢)،
وإلى كل قلب شفيح، ولكل شجو دموع (٣). يتقارضون الثناء (٤)
ويتراقبون الجزاء. إن سألوا ألحفوا وإن عدلوا كشفوا (٥) وإن حكموا
أسرفوا. قد أعدوا لكل حق باطلا ولكل قائم مائلا ولكل حي
قاتلا، ولكل باب مفتاحا ولكل ليل مصباحا: يتوصلون إلى الطمع
باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم (٦).

-
- ١ - يفتنون: يأخذون في فنون من القول لا يذهبون مذهبا واحدا
 - ٢ - الصريع: المطروح على الأرض، أي: إنهم كثيرا ما خدعوا أشخاصا أوقعوهم في الهلكة.
 - ٣ - الشجو: الحزن، أي: سيكون تصنعا متى أرادوا.
 - ٤ - يتقارضون: كل واحد منهم يسلف الآخر دينا ليؤديه إليه، وكل يعمل للآخر عملا يرتقب جزاءه منه.
 - ٥ - كشفوا: فضحوا.
 - ٦ - ينفقوا: يروجوا. الأعلاق، جمع علق، وهو الشيء النفيس. والمراد: ما يزينونه من خدائعهم.

كان عليهم سرمدًا
من كلام له في وصف من فارقوا الدنيا:
لا يفزعهم ورود الأهوال ولا يحزنهم تنكر الأحوال، ولا يحفلون
بالرواجف ولا يأذنون للقواصف، غيبًا لا ينتظرون وشهودًا لا يحضرون
وإنما كانوا جميعًا فتشتوا، وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم عميت
أخبارهم وصمت ديارهم (١)، ولكنهم سقوا كأسًا بدلتهم بالنطق
خرسًا وبالسمع صمًا وبالحركات سكونا.
جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف
وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب
الهجر وهم أخلاء، لا يتعارفون لليل صباحًا ولا لنهار مساءً، أي
الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدًا (٢).

١ - صمت: خرس عن الكلام. وخرس عن الديار: عدم صعود الصوت من سكانها.
٢ - الجديدان: الليل والنهار، فإن ذهبوا في نهار فلا يعرفون له ليلًا، أو في ليل فلا
يعرفون له نهارًا.

تحمله على أهوالها
ومن خطبة رائعة له في معنى الدنيا:
ساكنها ظاعن وقاطنها بائن (١) تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها
العواصف في لجج البحار فمنهم الغرق ومنهم الناجي على بطون الأمواج تحفزه
الرياح بأذيالها وتحمله على أهوالها (٢)، فما غرق منها فليس
بمستدرك وما نجا منها فإلى مهلك!
كانوا أطول أعمارا
من خطبة له في أحوال الدنيا:
أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات
وتحلت بالآمال وتزينت بالغرور.

١ - بائن: مبتعد، منفصل.

٢ - أي: منهم من هلك عند تكسر السفينة ومنهم من بقيت فيه الحياة فخلص محمولا
على بطون الأمواج، كأن الأمواج في انتفاخها كالحيوان المنقلب على ظهره وبطنه
إلى أعلى. أما هذا الناجي الذي تدفعه الرياح، فمصيره أيضا إلى الهلاك، بعد
طول العناء.

لم يكن امرؤ منها في حبرة (١) إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا (٢). وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة. وإن جانب منها احلولي، أمر منها جانب فأوبى (٣). لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا (٤) إلا أرهقته من نوائبها تعباً! ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف (٥)! كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أبهة (٦) قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد رده ذليلاً. ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب (٧)! ألتستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعد عديداً، وأكثر جنوداً! تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد! فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة!

-
- ١ - الحبرة: المسرة والنعمة.
 - ٢ - كنى ب (البطن) عن الإقبال، ب (الظهر) عن الإدبار.
 - ٣ - أوبى: صار كثير الوباء.
 - ٤ - الغضارة، النعمة والسعة. الرغب - بفتح الباء - الرغبة.
 - ٥ - القوادم: أربع ريشات في مقدم جناح الطائر.
 - ٦ - الأبهة: العظمة.
 - ٧ - محروب: مسلوب المال.

ويل لسكككم العامرة
ومن كلام له في مصير البصرة:
ويل لسكككم العامرة (١)، والدور المزخرفة التي لها أجنحة
كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة، من أولئك الذين لا يندب
قتيلهم، ولا يفقد غائبهم. أنا كأب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها
وناظرها بعينها!
اللهم قد انصاحت جبالنا
من خطبة له في الاستسقاء، وهي من
الخطب التي تزخر بالعاطفة والحنان،
وبالتواضع لخالق الكون وهيبة الوجود:
اللهم قد انصاحت جبالنا (٢)، واغبرت أرضنا، وهامت دوابنا
وتحيرت في مرابضها وعجت عجيج الثكالي على أولادها، وملت
التردد في مراتعها والحنين إلى مواردها. اللهم فارحم أنين الآنة، وحنين

- ١ - سكك، جمع سكة: الطريق المستوي.
٢ - انصاحت: جفت أعالي بقولها وييست من الجذب.

الحانة! اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها وأينها في موالجها (١)! اللهم
خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدايير السنين وأخلفتنا مخايل الجود (٢)،
فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ (٣) للملمس: ندعوك حين قنط الأنام
ومنع الغمام وهلك السوام (٤) أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا،
وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبثق والربيع المغدق والنبات المونق
سحا وابلا (٥) تحيي به ما قد مات وترد به ما قد فات. اللهم سقيا
منك محيية مروية، تامة عامة، طيبة مباركة، هنيئة، مريعة، زاكيا
نبتها ثمرا فرعها (٦٩) ناضرا ورقها، تنعش بها الضعيف من عبادك
وتحيي بها الميت من بلادك. اللهم سقيا منك تعشب بها نجادنا (٧) وتجري
بها وهادنا وتخصب بها جنابنا (٨) وتقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا
وتندى بها أقاصينا (٩) وتستعين بها ضواحيننا من بركاتك الواسعة!

-
- ١ - مداخلها في المرائب.
 - ٢ - مخايل، جمع مخيلة، كمصيبة، وهي: السحابة تظهر كأنها ماطرة ثم لا تمطر. والجود: المطر.
 - ٣ - البلاغ: الكفاية.
 - ٤ - السوام: جمع سائمة وهي: البهيمة الراعية من الإبل ونحوها.
 - ٥ - سحا: صبا. الوابل: الشديد من المطر الضخيم القطر.
 - ٦ - زاكيا: ناميا. ثامرا: آتيا بالثمر.
 - ٧ - النجاد جمع نجد، وهو: ما ارتفع من الأرض.
 - ٨ - الجناب: الناحية.
 - ٩ - القاصية: الناحية أيضا، وهي بمعنى البعيدة عنا من أطراف بلادنا، في مقابلة (جنابنا).

الغبية

من كلام له في النهي عن غيبة الناس:
وإنما ينبغي لأهل العصمة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون
الشكر هو الغالب عليهم، فكيف بالغايب الذي غاب أخاه وعيره
بيلواه؟!!

يا عبد الله، لا تجعل في عيب أحد بذنبه فلعله مغفور له، ولا تأمن
على نفسك صغير معصية فلعلك معذب عليه!
يذهب اليوم ويجيء الغد
من خطبة له:

إعلموا، عباد الله، أن عليكم رقدا من أنفسكم (١) وعيونا
من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم
لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج (٢)، وإن
غدا من اليوم قريب.

١ - الرصد، جمع راصد، ويريد به رقيب الذمة وواعظ السر الوجداني الذي لا يغفل
عن التنبيه ولا يخطئ في الإنذار والتحذير.
٢ - الرتاج: الباب العظيم إذا كان محكم الغلق.

يذهب اليوم بما فيه ويحيى الغد لاحقا به، فكأن كل امرئ منكم
قد بلغ من الأرض منزل وحدته، فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة
ومفرد غربة!

آه من بعد السفر

دخل ضرار بن حمزة الضبائي على معاوية،

فسأله هذا عن الإمام علي، فقال ضرار:

فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى

الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على

لحيته يتململ تململ السليم (١) ويكي بكاء

الحزين، ويقول:

يا دنيا يا دنيا، إليك عني! أبي تعرضت؟ أم إلي تشوفت؟ لا حان

حينك (٢)! هيهات! غري غيري، لا حاجة لي فيك، فعيشك

قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير! آه من قلة الزاد، وطول الطريق،

وبعد السفر، وعظيم المورد! (٣)

١ - السليم: الملدوغ.

٢ - تعرض به: تصدى له وطلبه. لا حان حينك: لا جاء وقت وصولك إلى قلبي
وتمكن حبك منه.

٣ - المورد: موقف الورود على الله في الحساب.

طبيعة الوجود
ومن خطبه التي تدل على إدراكه العميق
لطبيعة الوجود وأحواله:
مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها
- يعني الدنيا - نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوماً
من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا
بنفاد ما قبلها من رزقه، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، ولا يتجدد له
جديد إلا بعد أن يخلق له جديد (١)، ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه
محسودة. وقد مضت أصول نحن فروعها!
وأجرى فيها قمرا منيرا
من خطبة له يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض:
ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء (٢)
فأجرى فيها ماء متلاطما تياره متراكما زخاره حمله على متن الريح

١ - يخلق: يبلى.
٢ - سكائك، جمع سكاكة وهي: الهواء الملاقي عنان السماء.

العاصفة والزعرع القاصفة. ثم أنشا سبحانه ريحا أعصف مجراها فأمرها
بتصفيق الماء الزخار (١) وإثارة موج البحار، فمخضته مخض
السقاء (٢) وعصفت به عصفها بالفضاء ترد أوله إلى آخره وساجيه إلى
مائه (٣) حتى عب عبا به.
ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب (٤) وأجرى فيها سراجا
مستطيرا (٥) وقمرا منيرا في فلك دائر وسقف سائر!
تلاطم الماء
من خطبة له في قدرة الله:
يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات،
واختلاف النينان في البحار الغامرات (٦)، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات!

-
- ١ - تصفيق الماء: تحريكه وتقليبه.
 - ٢ - مخضته: حركته بشدة كما يمخض السقاء بما فيه من اللبن ليستخرج زبده. والسقاء:
وعاء من جلد اللبن والماء.
 - ٣ - الساجي: الساكن. والمائر: الذي يذهب ويجيء، أو المتحرك مطلقا
 - ٤ - الثواقب، المنيرة المشرقة.
 - ٥ - مستطيرا: منتشر الضياء، ويقصد به الشمس.
 - ٦ - النينان، جمع نون وهو: الحوت.

حلقة الخفاش

من خطبة له يذكر فيها حلقة الخفاش:

ومن لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذهبها وتصل بعلاوية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها تلاًؤ ضيائها عن المضي في سباحات إشراقها (١) وأكنها في مكانها عن الذهاب في بلج ائتلاقها (٢) فهي مستدلة الجفون بالنهار على أحداقها، وجاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته (٣)، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته (٤). فإذا ألقى الشمس قناعها وبدت أوضاع نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب (٥) في وجارها، أطبقت الأجنان على مآقيها وتبلغت (٦) بما اكتسبت من فيء ظلم لياليها. فسبحان من جعل الليل لها نهارا.

١ - سباحات النور: درجاته وأطواره.

٢ - البلج: الضوء ووضوحه. الائتلاق: اللمعان الشديد

٣ - أسداف الليل: أظلم.

٤ - الدجنة: الظلمة.

٥ - الضباب، جمع ضب وهو الحيوان المعروف.

٦ - تبلغت: اكتفت أو اقتاتت.

ومعاشا، والنهار سكونا وقرارا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها
عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان (١) غير ذوات ريش ولا قصب،
إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاما (٢) لها جناحان لما يرقا
فينشقا ولم يغلظا فيثقلتا، تطير وولدها لاصق بها لا جئ إليها:
يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانها ويحمله
جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه. فسبحان الباري لكل شيء
على غير مثال خلا من غيره!
خلقة الطاووس
من خطبة له يذكر فيها عجيب خلقة
الطاووس:

ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل، ونضد
ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرح قصبه (٣) وذنب أطال مسحبه

١ - شظايا، جمع شظية، وهي: الفلقة من الشيء، أي: كأنها مؤلفة من شقق
الآذان.

٢ - رسوما ظاهرة.

٣ - أشرح قصبه: داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر.

إذا درج إلى الأنتى نشره من طيه وسما به مظلا على رأسه كأنه قلع
داري عنجه نوتيه (١) يختال بألوانه ويميس بزيفانه (٢).
تخال قصبه مداري من فضة (٣) وما أنبت عليه من عجيب داراته (٤)
وشموسه خالص العقيان (٥) وفلذ الزبرجد. فإن شبهته بما أنبتت
الأرض قلت: جنى جنى من زهرة كل ربيع! وإن ضاهيته بالملايس
فهو كموشى الحلل! وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان
نطقت باللجين المكمل (٦)، يمشي مشي المرح المختال، ويتصفح ذنبه
وجناحيه فيقهقه ضاحكا لجمال سرباله وأصايغ وشاحه!
فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا (٧) معولا يكاد يبين عن استغائته،
ويشهد بصادق توجعه، لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية (٨).

-
- ١ - القلع: شراع السفينة. عنجه: جذبه فرغعه. النوتي: الملاح
 - ٢ - الزيفان: التبخير، ويريد به حركة ذنب الطاووس يمينا وشمالا.
 - ٣ - القصب: الريش. المداري جمع مدري. والمدري والمدراة: أداة ذات أسنان كأسنان المشط.
 - ٤ - الدارات جمع دارة، وهي بالنسبة للشمس كالهالة بالنسبة للقمر.
 - ٥ - العقيان: الذهب الخالص.
 - ٦ - اللجين: الفضة. المكمل: المزين بالجواهر.
 - ٧ - زقا يزقو: صاح.
 - ٨ - حمش، جمع أحمش، أي: دقيق، والديك الخلاسي: الديك المتولد بين دجاجة وديك من لونين مختلفين.

وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة. ومخرج عنقه كالإبريق ومغزها إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية (١) أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال (٢) وكأنه ملفع بمعجر أسحم إلا أنه يخيل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به. ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الأقحوان أبيض يقق، فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق. وقل صبغ إلا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه (٣) فهو كالأزاهير المبتوثة لم تربها أمطار ربيع ولا شمس قيط. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى، وينبت تباعا، فينحت من قصبه انحنت أوراق الأغصان (٤). ثم يتلاحق ناميا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه: لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه. وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية،

-
- ١ - مغزها: الموضع الذي غرز فيه العنق منتهيا إلى مكان البطن. الوسمة: نبات يخضب به.
 - ٢ - الصقال: الجلاء.
 - ٣ - علاه: فاقه. البصيص: اللمعان.
 - ٤ - ينحسر من ريشه: يتكشف منه ويعرى. تترى: شيئا بعد شيء. ينحت: يسقط. وينقشر. انحنت الأوراق: تناثر الأوراق.

وتارة خضرة زبرجدية، وأحيانا صفرة عسجدية (١) فكيف تصل إلى
صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول (٢) أو تستنظم
وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزاءه قد أعجز الأوهام أن تدركه
والألسنة أن تصفه!
خلقة النملة

من خطبة له في وصف خلقة النملة:
أنظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر
ولا بمستدق الفكر: كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها! تنقل
الحبة إلى جحرها وتعددها في مستقرها. تجمع في حرها لبردها وفي
ورودها لصدرها، مكفولة برزقها مرزوقة بوقفها (٣) لا يغفلها المنان
ولا يحرمها الديان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس (٤). ولو فكرت
في مجاري أكلها، في علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف
بطنها (٥) وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجا ولقيت

١ - ذهبية.

٢ - عمائق، جمع عميقة. القرائح جمع قريحة وهي: الخاطر والذهن.

٣ - الصدر: الرجوع بعد الورود. بوقفها: بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها،
أو بما هو قدر كفايتها منه.

٤ - الجامس: الجامد.

٥ - الشراسيف: مقاطع الأضلاع.

في وصفها تعبا! فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبنهاها على دعائمها! لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر. ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النحلة، لدقيق تفصيل كل شئ (١) وغامض اختلاف كل حي! وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء!
خلقة الجرادة

ومنها في وصف الجرادة:

وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمرأوين (٢) وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي وجعل لها الحس القوي، ونايين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض (٣) يرهبها الزراع في زرعهم ولا يستطيعون ذبها (٤) ولو أجلبوا بجمعهم، حتى ترد الحرث في نزواتها (٥) وتقضي منه شهواتها! وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة!

-
- ١ - أي: إن دقة التفصيل في النملة على صغرها وفي النحلة على طولها، تدلك على أن الصانع واحد.
 - ٢ - أي: مضيئتين كأن منهما ليلة أضاءها القمر.
 - ٣ - أراد بالمنجلين هنا: رجليها، لاعوجاجهما وخشونتهما.
 - ٤ - دفعها
 - ٥ - وثباتها.

اغفر لي
من كلام له كان يدعو به:
اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني، فإن عدت فعد علي بالمغفرة!
اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني ثم خالفه قلبي! اللهم اغفر لي
رمزات الألفاظ (١) وسقطات الألفاظ، وشهوات الجنان وهفوات
اللسان

ماذا لقيت

وقال في سحرة اليوم الذي ضرب فيه (٢):
ملكنتي عيني وأنا جالس (٣) فسنح لي رسول الله (ص) فقلت:
يا رسول الله، ماذا لقيت من أمتك من الأود والدد! (٤) فقال:
ادع عليهم! فقلت أبدلني الله بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا لهم
مني!

-
- ١ - رمزات الألفاظ: الإشارة بها.
 - ٢ - السحرة: السحر الأعلى من آخر الليل.
 - ٣ - ملكنتي عيني: غلبني النوم.
 - ٤ - الأود: الاعوجاج. اللدد: الخصام.

العفو عن القتال
من كلام له قاله قبل موته على سبيل
الوصية، لما ضربه ابن ملجم
أنا بالأمس صاحبكم، واليوم عبرة لكم، وغدا مفارقكم! إن أبق
فأنا ولي دمي. وأن أفن فالفناء ميعادي. وإن أعف فالعفو لي قربة،
وهو لكم حسنة، فاعفوا!
مظلوم

من كلام له في معنى الظلم الواقع عليه
ما زلت مظلوما منذ قبض الله نبيه حتى يوم الناس هذا. ولقد كنت
أظلم قبل ظهور الإسلام. ولقد كان أخي عقيل: يذنب أخي جعفر
فيضربني!

الأثوار الثلاثة رأينا أن نثبت هذا المثل هنا، لأنه من أجمل الأمثال العربية التي جاءت حكاية عن الحيوان، ثم لأنه أول هذه الأمثال التي شاعت فيما بعد على يد ابن المقفع بكتابه الشهير (كليلة ودمنة). وفيه دعوة إلى الاتحاد وتنفير من الفتنة. والغريب أن يكون هذا المثل الذي ثبتت نسبته إلى الإمام علي، غير مذكور في (نهج البلاغة) على اختلاف طبعاته وكثرة المعتنين به، ولا في الكتب التي استدرك مصنفوها ما فات جامع (النهج):

أثوار ثلاثة كن في أجمعة، أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شئ لاجتماعهن عليه فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتmani آكله صفت لنا الأجمعة! فقالا له! دونك فكله. فأكله. فلما مضت أيام، قال للأحمر: لوني على لونك فدعني أكل الأسود لتصفو لنا الأجمعة! فقال دونك فكله! ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة! فقال: دعني أنادي ثلاثا. فقال: افعل. فنادى: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض!

طائفة
من روائع أمثاله

(٢٠٧)

من ظن بك خيرا فصدق ظنه.
لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوءا وأنت تجد لها في الخير محتملا
أسوأ الناس حالا من لم يثق بأحد لسوء ظنه، ومن لم يثق به أحد
لسوء فعله.
ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة.
سوء الظن يدوي القلوب (١) ويتهم المأمون، ويوحش المستأنس
ويغير مودة الإخوان.
ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجرا ممن قدر فعف. لكاد
العفيف أن يكون ملاكا من الملائكة.
العفو زكاة الظفر.
أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.
أستر عورة أخيك واغتفر زلة صديقك
عليك بالصدق في كل أمورك.
لا سوءة أسوأ من الكذب.
الكذاب يخيف نفسه وهو آمن.
علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك.
جانبوا الكذب فإن الصادق على منجاة وكرامة، والكاذب على شفا
مهواة وهلكة.

١ - يدوي: يصيب بالداء.

الكذاب والميت سواء. لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به، فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته.
إن كنت صادقاً كافياً. وإن كنت كاذباً عاقبناك.
لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا في أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له. إن الكذب يهدي إلى الفجور.
خير المقال ما صدقته الفعال
إن من عدم الصدق في منطقته فقد فجع بأكرم أخلاقه.
ما السيف الصارم في كف الشجاع بأعز له من الصدق.
أقبح الصدق ثناء المرء على نفسه.
ذمتي بما أقول رهينة.
اعتصموا بالذمم.
لا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك.
أوفوا إذا عاقدتم، واعدلوا إذا حكمتهم، ولا تفاخروا بالآباء
لا تكن ممن ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، ويصف العبرة ولا يعتبر،
فهو على الناس طاعن ولنفسه مداهن.
لا تصحب المائق (١) فإنه يزين لك فعله ويود أن تكون مثله
لا صديق لمتلون، ولا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا مروءة
لدنيء.
انتهزوا فرص الخير.

افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئا، فإن صغيره كبير وقليله كثير
قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله.
الساعي بالخير كفاعله. أما الساعي بالشر ومحاربة الخير فهو عدو الله
والبشر.

ولا يقولن أحدكم إن أحدا أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك
إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفزع. فإذا ظهرت ولدت
الألم. وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر، ولدت الفرج، فإذا ظهرت
ولدت اللذة.

من اعتدل يوماه فهو مغبون.
الكيس من كان يومه خيرا من أمسه.

من اعتدل يوماه فهو مغبون

من من بمعروفه أفسده. لا يزهديك في المعروف من لا يشكر لك.
أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه
لا تستصغر شيئا من المعروف قدرت على اصطناعه إيثارا لما هو أكثر
منه فإن اليسير في حال الحاجة أنفع من الكثير في حال الغني عنه
فاعل الخير خير منه، وفاعل الشر شر منه

لا تعمل الخير رياء ولا تتركه حياء.

من لا يعرف الخير من الشر فهو بمنزلة البهيمة
لن يضيع الله أجر من أحسن عملا.

أطلبوا الخير وأهله، واعلموا أن خيرا من الخير معطيه، وشرا من الشر فاعله.

ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له، أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل في خيرا واعمل خيرا فإنك لن تراني بعد أبدا!

قال في صفة الإنسان الشريف: ينوي كثيرا من الخير، ويعمل بطائفة منه، ويتلهف على ما فاتته كيف لم يعمل به.

وقال فيه أيضا: قد ألزم نفسه العدل، يصف الحق ويعمل به. لا يدع للخير غاية إلا أمها ولا مظنة إلا قصدها.

أحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.

من استحسّن القبيح كان شريكا فيه.

إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره، فإنك تقف في مشورته على عدله وجوره، وخيره وشره.

ليس في البرق الخاطف مستمتع (١) لمن يخوض في الظلمة إقبل عذر من اعتذر إليك، وآخر الشر ما استطعت.

ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء من تعدى الحق ضاع مذهبه من صارع الحق صرعه.

لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل.

١ - مستمتع، متعة.

إلا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض
ما شككت في الحق مذ رأيت
اتبعوا الحق وأهله حيث كانوا.
لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، وما أكره
الموت على الحق.
ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.
من طلب عزا بباطل أورثه الله ذلا بحق،
من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل
بهما أثقل عليه.
لنا حق فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى،
لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة من يسلكه.
اعملوا في غير رياء
للمرائي ثلاث علامات: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده،
ويحب أن يحمد في جميع أحواله!
ليكن دنوك من الناس لنا ورحمة.
عاتب أخاك بالإحسان إليه واردهه بالإنعام عليه.
صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك،
وقل الحق ولو على نفسك.
أزجر المسئء بثواب المحسن.

إن لم تكن حليماً فتحلم، فإنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم.
ليس جزاء من سرك أن تسوءه.
ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب من أساء خلقه عذب نفسه.
كفى بحسن الخلق نعيماً.
لا تعدن عدة تحقرها قلة الثقة بنفسك، ولا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً.
إرحم ترحم. قل الخير تذكر بخير. اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار.
ليرأف كبيركم بصغيركم.
من وعظ أخاه سرا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه.
عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب، وبالعدل على الصديق والعدو.
سامع الغيبة أحد المغتابين.
الغيبة جهد العاجز.
نظر الإمام إلى رجل يغتاب آخر عند ابنه الحسن، فقال: يا بني، نزه سمعك عنه، فإنه نظر إلى أحبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك. أمحض أخاك النصيح وساعده على كل حال، ولا تصرم أخاك على ارتياب ولا تقاطعه دون استعتاب فلعل له عذراً وأنت تلوم.

الويل كل الويل لمن استحسن لنفسه ما يكرهه لغيره وأزرى على الناس
بمثل ما يأتي
ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضي بثناء
الجاهل عليه.
من تجرأ لك تجرأ عليك.
من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك، ذمك بما ليس
فيك من القبيح وهو ساخط عليك
عجبا لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! وعجبا لمن قيل فيه الشر
وليس فيه كيف يغضب! لتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك.
من استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسه عنده قدر! رأس العلم الرفق.
ما كان الرفق في شئ إلا زانه.
وإن غائبا يحدوه الحديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة (٢).
طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.
من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذاك الأحمق بعينه.
من نسي زلله استعظم زلل غيره، ومن تكبر على الناس ذل.
وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره.

١ - يحدوه: يسوقه. الأوبة: الرجوع.

الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل.
من عرف نفسه فقد عرف ربه.
هلك امرؤ لم يعرف قدره.
أنظر وجهك كل وقت في المرأة، فإن كان حسنا فاستقبح أن تضيف
إليه فعلا قبيحا وتشينه به. وإن كان قبيحا فاستقبح أن تجمع بين قبيحين!
الإنسان مرآة الإنسان، يتأمله ويسد فاقتة.
إذا كان في رجل خلة رائقة فانتظروا أخواتها (١).
شراركم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المبتغون للأبرياء
المعايب.
لا سؤدد مع انتقام ولا صواب مع ترك المشورة.
لا أقبل شهادة الفاسق إلا على نفسه.
إذا حييت بتحية فحي بأحسن منها. وإذا أسديت إليك يد فكافئها
بما يربي عليها، والفضل في ذلك للبادي.
إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره، تنكرت للناس أخلاقه.
إذا رفعت أحدا فوق قدره، فتوقع منه أن يحط منك بقدر ما رفعت منه!
لا تشمت بالمصائب ولا تدخل في الباطل ولا تخرج من الحق.
لا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك!

١ - الخلة: الخصلة.

أكرم نفسك عن كل دنية.
لا يأبى الكرامة إلا حمار.
من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب.
من عزى الثكلى فقد أظله الله في ظل عرشه.
أدب اليتيم بما تؤدب به ولدك.
ساووا ضعفاءكم في ما كلكم.
لا يطمع قريبك في حيفك (١) ولا ييأس عدوك من عدلك.
لا تصحبن في سفر من لا يرى لك من الفضل عليه مثل ما يرى له من
الفضل عليك.
إن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي.
لا تسار أحدا في مجلسك، وإن غضبت فقم، ولا تقضين وأنت
غضبان.
ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة.
إذا طرقت إخوانك فلا تدخر عنهم ما في البيت، ولا تتكلف لهم
ما وراء الباب.
شر الإخوان من تكلف له.
إياك وكل عمل إذا ذكر لصاحبه أنكروه.

١ - الحيف: الظلم.

من عمل في السر ما يستحيي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر
من أصلح سريرته أصلح علانيته.
من حذر ك كمن بشرك.
لا يرضى عنك الحاسد حتى يموت أحدكما
حسد الصديق من سقم المودة.
التواضع نعمة لا يفتن لها الحاسد.
ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم وقلب هائم وحزن
لازم، مغتاض على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملك!
الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي أو
حسد.
خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنوا إليكم.
لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث:
في نكبه
ووفاته.
عدو عاقل خير من صديق جاهل.
من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم.
أكبر الأعداء أخفاهم مكيدة.
من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه.
ما جفت الدموع إلا لقسوة في القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب.

تحتاج القراية إلى مودة، ولا تحتاج المودة إلى قراية.
رب قريب أبعد من بعيد. ورب بعيد أقرب من قريب. والغريب
من لم يكن له حبيب.
المودة قراية مستفادة.
فقد الأحبة غربة.
من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه،
وحفظه قديم إخوانه.
الطمع رق مؤبد.
أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.
كم من عقل أسير تحت هوى أمير.
إن كنت جازعا على ما تفلت من يدك، فاجزع على كل ما لم يصل
إليك.
الهوى مطية الفتنة.
إذا أسرت فكل الرجال رجالك ٧ وإذا أعسرت أنكرك أهلك.
إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته
محاسن نفسه.
فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.
ثلاثة يرحمون: عاقل يجري عليه حكم جاهل، وضعيف في يد
ظالم قوي، وكريم يحتاج إلى لئيم.

إذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر، فإنه لا يفكر إلا في خير. وإذا
سألت لئima حاجة فعاجله، فإنه إن فكر عاد إلى طبعه.
الرغبة إلى الكريم تحركه على البذل، وإلى الخسيس تغريه بالمنع.
الكريم لا يلين على قسر، ولا يقسو على يسر!
وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم.
السخاء ما كان ابتداء، فأما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم (١).
البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء.
البخل جلاباب المسكنة.
البخلاء من الناس يكون تغافلهم عن عظيم الحرم أسهل عليهم من
من المكافأة على يسير الإحسان.
يا ابن آدم، ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك.
يا ابن آدم، كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه
من بعدك.
من يكن له مال فليفك به العاني والأسير.
من كرمت عليه نفسه هان عليه ماله.
الحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحم في الذنوب.
لا تهضمن محاسنك بالفخر والكبر.

١ - التذمم، الفرار من الذم.

إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد.
أكبر الفخر ألا تفخر.
يكون الصبر على قدر المصيبة.
المصيبة واحدة، فإن جزعت كانت اثنتين.
عود نفسك الصبر على المكروه.
عند تناهي الشدة تكون الفرجة.
الصبر مطية لا تكبو.
الصبر صبران، صبر على ما تكره وصبر عما تحب.
الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك. فإن كان لك فلا تبطر، وإن
كان عليك فاصبر.
من صبر صبر الأحرار، وإلا سلا سلو الأغمار (١).
لا تكن عند النعماء بطرا ولا عند البأساء فشلا.
التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه.
من طلب شيئا ناله أو بعضه.
المرء مخبوء تحت لسانه.
هانث عليه نفسه من أمر عليه لسانه.
لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه.

١ - الأغمار، جمع غمر، وهو: الجاهل الذي لم يجرب الأمور.

إذا فعلت كل شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً
لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل.
أمسك عليك لسانك فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من
إدراك ما فات من منطقتك.
لا تسأل عما لا يكون، ففي الذي قد كان لك شغل
الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله.
إن الأمور إذا اشتبهت اعتبر أولها بآخرها.
أصاب متأمل أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد!
ما أكثر العبر وأقل الاعتبار.
رأي الشيخ أحب من جلد الغلام (١)
قيل له: صف لنا العاقل. فقال: هو الذي يضع الأشياء مواضعها.
فقيل: فصف لنا الجاهل. فقال: قد فعلت.
من اشتبه عليكم أمره فانظروا إلى خلطائه.
إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى.
من تذكر بعد السفر استعد.
نفس المرء خطاه إلى أجله.
كم من أكلة منعت أكالات.

١ - جلد الغلام: صبره على القتال.

الخلاف يهد الرأي.
لا رأي لمن لا يطاع.
قال لما سمع قول الخوارج (لا حكم إلا لله): كلمة حق يراد
بها باطل!
من جهل شيئاً عابه.
الناس أعداء ما جهلوا.
من لان عوده كثفت أغصانه.
نوم على يقين خير من صلاة على شك
فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد.
أفضل الزهد إخفاء الزهد
ليست الصلاة قيامك وقعودك إنما الصلاة إخلاصك.
أشد الذنوب ما استهان به صاحبه.
لا تحتقرن صغيراً يمكن أن يكبر، ولا قليلاً يمكن أن يكثر.
يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل (١) ولا يظرف فيه
إلا الفاجر (٢) ولا يضعف فيه إلا المنصف (٣).
الدنيا حمقاء لا تميل إلا إلى أشباهها!

١ - الماحل: الساعي في الناس بالوشاية عند السلطان.

٢ - لا يظرف: لا يعد ظريفاً.

٣ - لا يضعف: لا يعد ضعيفاً.

أنا كأب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها.
أيها الناس، إني والله ما أحثكم على طاعة إلا أسبقكم إليها ولا
أنهاكم عن معصية إلا أتأهي قبلكم عنها.
من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن
تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من
معلم الناس ومؤدبهم.
ينبغي لمن ولي أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم
رعيته وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود!
واعجباه! أتكون الخلافة بالصحابة والقراة!
أشقى الرعاة من شقيت به رعيته.
ما أقبح الغدر من السلطان.
لا زعامة لسئ الخلق.
إذا كان الراعي ذئباً، فالشاة من يحفظها!
لا تقبلن في استعمال عمالك وأمرائك شفاعاة إلا شفاعاة الكفاية
والأمانة.
من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، فإنه لو غص بغيره لأساغ
الماء غصته!
العدل صورة واحدة، والجور صور كثيرة. ولهذا سهل ارتكاب الجور

وصعب تحري العدل، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها
وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض (١).
قدم العدل على البطش ولا تستعمل الفعل حيث ينجع (٢) القول
شر الناس إمام ضل وضل به.
البغي آخر مدة الملوك.
عدل السلطان خير من خصب الزمان.
المسؤول حر حتى يعد.
قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها من عدل أو جور وجده
فيها.
ألا وإني أقاتل رجلين، رجلا ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي
عليه
يد الله فوق رأس الحاكم ترفرف بالرحمة، فإذا حاف (٣) وكله الله
إلى نفسه.
قال في الله تعالى: وقلع جبالها ونسفها ودك بعضها بعضا من
هيبة جلالته!
الحمد لله الذي لا توارى عنه سماء سماء ولا أرض أرضا.
على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بالعامّة.

١ - ارتياض: مران.

٢ - ينجع: ينفع.

٣ - حاف: ظلم

بنى رجل من عماله بناء فخما، فقال الإمام أطلعت الورق
رؤوسها، إن البناء يصف لك الغنى!
إذا غضب الله على أمة غلت أسعارها وغلبها أشرارها.
ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم: تاجر البحر، وصاحب السلطان
والمرتشي في الحكم!
اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون، واغفر لنا ما لا يعلمون.
عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت، فقال: ما لك لا تقول: قال:
إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب.
لا تدعون إلى مبارزة.
إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق.
من أمنت من أذيته فارغب في أخوته.
إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم.
أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم وتعاونوا.
تعاطوا الحق بينكم وتعاونوا به على يد الظالم السفية.
اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك.
يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم.
شيعتنا الذين إن غضبوا لم يظلموا. بركة على من جاوروا سلم لمن
خالطوا.

البغي والزور يزريان بالمرء.
وقد خاب من حمل ظلما.
ما أقبح القسوة على الجار.
هلك من ادعى وخاب من افترى.
من زرع العدوان حصد الخسران.
بئس العدوان على العباد.
الظلم يدعو إلى السيف.
لا تقوين سلطانك بسفك دم حرام.
وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولاآخذن الظالم بخزائمه حتى أورده
منهل الحق وإن كان له كارها.
إختر أن تكون مغلوبا وأنت منصف، ولا تختار أن تكون غالبا وأنت
ظالم
الأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر.
ظلم الضعيف أفحش الظلم.
وأما الذنب الذي لا يغفر، فظلم العباد بعضهم لبعض
لا تكن للظالم معينا.
للظالم ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه
بالغلبة، ويظاهر القوم الظالمين (١).

١ - الغلبة: القهر. بظاهر: يعون.

رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً
بالحق على صاحبه.
العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به، شركاء ثلاثة.
الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثم:
إثم العمل به، وإثم الرضا به.
قيل له: أي الأمور أعجل عقوبة وأسرع لصاحبها صرعة؟ فقال:
ظلم من لا ناصر له إلا الله واستطالة الغني على الفقير.
أذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك
الفجور دار حصن ذليل: لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه (١).
لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها.
لكل امرئ ما اكتسب.
قيمة كل امرئ ما يحسن.
واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون.
لا تنظروا إلى من قال وانظر إلى ما قال.
لا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا قرين كحسن الخلق.
أشرف الأشياء العلم، والله تعالى عالم يحب كل عالم.
من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه.

١ - يحرز: يحفظ.

من قصر في العمل ابتلى بالهم.
لا تكن ممن يرجو لنفسه بأكثر من عمله.
إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا.
لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل.
تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظا، فلأن يذم الزمان لكم أحسن
من أن يذم بكم
ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة
العامل بغير علم كسائر في غير طريق. فلا يزيده بعده عن الطريق إلا
بعدا عن حاجته. والعامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح، فليُنظر
ناظر أسائر هو أم راجع؟ الفكرة تورث نورا والغفلة تورث ظلمة.
سل تفقها ولا تسأل تعنتا
أعلم الناس من جمع علم الناس إلى عمله
من استبد برأيه هلك. ومن شاور الرجال شاركها في عقولها.
من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.
لا كنز أنفع من العلم، ولا عز أرفع من الحلم.
قطع العلم عذر المتعللين.
ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك.

هلك خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر
الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.
العالم حي وإن كان ميتا، والجاهل ميت وإن كان حيا.
العلم إحدى الحياتين، والمودة إحدى القرابتين، والذكر الجميل أحد
العمرين

لا يستحين أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم! ولا
ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه
ما أكثر ما تجهل من الأمر، ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك،
ثم تبصره بعد ذلك.
لا فقر أشد من الجهل.
لا يؤمنك من شر جاهل قرابة ولا جوار.
إذا أرذل الله عبدا حظر عليه العلم.
كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع
إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.
لهب الشوق أخف محملا من مقاساة الملالة.
كفى العلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه من
ليس من أهله. وكفى بالجهل حمولا أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا
نسب إليه.

أقل الناس قيمة أقلهم علما.
العلم دين يدان به.
العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه.
من أفتى بغير علم لعنته الأرض والسماء.
العلماء غرباء لكثرة الجهال.
ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا
شكر العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقه.
ذو الهمة وإن حط نفسه يأبى إلا علوا. كالشعلة من النار يخفيها صاحبها
وتأبى إلا ارتفاعا.
إذا جلست إلى عالم فكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تقول.
العلم مقرون بالعمل: فمن علم عمل. والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه
وإلا ارتحل.
يا حملة العلم أتحمولونه؟ فإنما العلم لمن علم ثم عمل بما علم ووافق
عمله علمه.
إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل
الحجة عليه أعظم.
لا تجعلوا علمكم جهلا و يقينكم شكاً. إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم
فأقدموا.
ما أحسن العلم يزينه الرفق

قلت: إن فلانا أفاد مالا عظيما! فهل أفاد أياما ينفقه فيها (١)؟
ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه،
وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعمّا عمل
فيما علم.

مجاوزتك ما يكفيك فقر لا منتهى له.
ما أصعب على من استعبده الشهوات أن يكون فاضلا
من ملك استأثر (٢).

منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال.
التاجر فاجر، والفاجر في النار، إلا من أخذ الحق وأعطى الحق.
قال في جامع المال: لعله من باطل جمعه - ماله - ومن حق منعه
الفقر الموت الأكبر.

الفقر يخرس الفطن، والفقير غريب في بلده.
الفقر في الوطن غربة.

ليس بلد بأحق بك من بلد. خير البلاد ما حملك (٣)

١ - أفاد: استفاد.

٢ - استأثر: استبد وخص نفسه بكل مغنم.

٣ - يقول: كل البلاد تصلح سكنا لكل إنسان، إنما أفضلها ما حملك، أي
أعزك وأطمعك وآواك.

لو تمثل لي الفقير رجلا لقتلته
ما جاع فقير إلا بما متع به غني
ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع
ما جمع مال إلا من شح أو حرام
لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى.
لا تنال نعمة إلا بعد أذى

ما خلق امرؤ عبثا فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو (١).
الخطأ في إعطاء من لا يتبغي ومنع من يتبغي، واحد!
إذا استغنيت عن شيء فدعه، وخذ ما أنت محتاج إليه.
إمنع من الاحتكار.

إنما يعاب من أخذ ما ليس له.

إياكم والدين

الدين مذلة

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات لسوء أفعالهم. فتذكروا
في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم.
واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم.
لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

١ - يلغو: يأتي باللغو: وهو ما لا فائدة فيه.

قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه.
لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً.
كل ما حملت عليه الحر احتمله وراه زيادة في شرفه، إلا ما حطه
جزءاً من حرите فإنه يأباه ولا يجيب إليه.
وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون.
قد أذنت لك أن تكون على ما بدا لك.

الهم نصف الهرم
لا أعاقب على الظنة.

من تعاضم على الزمان أهانه. أنهاك عن التسرع في القول والعمل
اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم.
ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في
السنة، وأسرع السنين في العمر!***